



وجه القمر

مجموعة قصصية





الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

تنبيه

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة المؤلف والناشر على هذا كتابة ومقدمًا.

اسم الكتاب	: وجه القمر
اسم المؤلف	: أسامة أحمد العمري
الغلاف	: جروث أب
المراجعة والتصياغة	: الشاعرة إيمان إمبابي
خطوط	: الخطاط محمود شومان ، الخطاط هاني الطويل
اللوحات	: مجموعة من الفنانين
الإشراف الفني	: الفنانة عبير العريني
التدقيق اللغوي	: الأستاذ خالد رجب عواد
الإخراج الفني	: شركة نمو متصل
الطبعة	: الأولى
رقم الإيداع	: ٢٠١٧/٢٥٢٢٧
الترقيم الدولي	: ٩٧٨٨-٩٧٧-٧٨٦-١٢٨-١



٨ عمارات الواحة - قطعة ١٠ - مدينة نصر - القاهرة ت : ٠١١١٠٣٧١٦٤٠

ghorabpublishing@hotmail.com



وجه القمر
مجموعة قصصية







الاهداء



إلى كل الذين فقدوا سبل الحقيقة .. وزحزحوا عن مسارها ..
لتظل أسئلتهم حبيسة جب من الخوف بعدم الجرأة لنقاشها
إلى كل من أجمعوا عن معرفة ابعاد قضايا مجتمعهم
.. لتظل فقط كمسلمات وموروثات نشأنا عليها ..
إلى من لازالت تعترك الأسئلة في عقولهم
دون ومضة ترشدهم

أهدى لكم هذا الكتاب ،،

أستاذة أحمد العريبي





كتب أُخرى للمؤلف



- خوفناك كوهست -مجموعة قصصية-
- البشرى "بالرؤية والعلم تبني الحضارات"
- كيف تصنع الدهشة (تحت الطبع)
- نسَمات من زمن الحب (تحت الطبع)
- أسرار الانفوجرافيك (تحت الطبع)





إلى من تُشرق الشمسُ بابتسامتها
ويُسدُّ الليلُ ستارةً سواداً كثيفة حين
تغيبُ تلك الابتسامة
إلى من تُبدلُ الشقاء رخاءً بضحكتها
إلى وجه القمرِ
ابنتي زَينم

أمانة أحمد المرزوق







الفهرس



١١ المقدمة
١٥ هوية
٤١ إشارة حمراء
٥٧ النداء الاخير
٨١ امنية حرون
٩٥ وجه القمر
١١٧ فيلم برونو
١٣٣ كرافته جينفشي
١٥١ الغيم الأسود
١٦٩ غنج تحت الردى
١٩٣ البرزخ





مقدمة

لعلي دخلت عالم الكتابة متأخراً، ورغم إن كل ما يدور حولي قد يكون عاملاً مثبطاً لكي لا اكتب . إلا إنني كنتُ اعاقِر ذلك الشغف الذي يحدوني كل مرةٍ في خلوتي، بإن يكون لي أثرٌ في عالم الكلمة، ذاك العالم المسافر بغير زمنٍ ولا مسافات .

ومرت الايامُ وأضحى هناك اغلفة عليها اسمي، مما شجعني إن أكتب مدفوعاً بشغفِ الأثر، أن أترك رصيماً يُستدلُّ به على فكري وقيمي وتطلمي لبصمةٍ إيجابية في عقولِ وفكرِ البشر، بعد رحيلي، لذ كنتُ أناجزُ الوقتَ، واخادعه فيخدعني تاراتٍ حتى أمكنُ منه، فأقتنصُ منه سويعات .. تتسمُّ مراتٍ بالاضطرابِ وتارةً بالانتظام .

واني على فتاعةٍ بأن الكاتبَ مهما كان مُحنكاً وكتوماً وحريراً، فإن كتاباته تُفصح عنه، وإن استشكلَ ذلك على القراء، فإن النقاد لن يستكفوا جهداً في كشفِ وبيان شخصية الكاتبِ وتوجهاته، وكلما كتب كلما تبين ملامح شخصيته وحدودها، وأدرك الجمهورُ لمن يقرأ، وعلى أي أساس بنى أحكامه وأفكاره ...



وفي هذه المقدمة أكشفُ بشفافيةٍ سبلي الفكرية .. دون حاجةٍ إلى استقصاءٍ أو بحثٍ .

فكتاباتي تعكسُ جزءً من أفكار طالما شغلني التفكير فيها، ولعل في هذه المجموعة من القصص ما هو الأقرب إلى قلبي، لكن الرابط الذي يجمعُ هذه القصص هو احساسي بالمسئولية تجاه الكلمة، ودورها الهام في تشكيل الجيل الجديد، وكيف يمكن أن تكون الكلمة يداً للبناء أو معولاً للهدم.

لذلك عملت على هذه المجموعة أكثر من سنتين أنقح وأبدل وأعدّل، أ حذف وأكتب من جديد، وما بين ما أغرم به ككاتبٍ وما يهمني أن يصلُ للقارئ، وأنا في ذلك مجتهد، أصيب و أخطأ، وعندما أنتهي من كل قصةٍ، أسأل نفسي هذا السؤال .. هل تليق بأن يقرأها أولادي!.

حتى إذا كانت الأجابه نعم .. استكملت الكتابة بحذرٍ المتوجس.

فيما بين يديك عزيزي القارئ هو اجتهاد كاتب؛ إن اصاب فمن الله توفيقه، وإن أخطأ فمن نفسه وما اعترأها من الهوى ونزعات الشيطان.

سبتمبر ٢٠١٧



أمانه أحمد العريبي





هوية



شтан بين الحياة في الأسفل والسطح، يتحرك الجميع في الأعماق بحثا عن الرزق كل على شاكلته جماعاتٍ وفرادي، يغدون كما تغدو الطير تروح خماسا وتعود بطانا، لا تصنف كائنات البحر بعضُها البعض على الهوية أو الجنسية ولا تنصب الحدود والأسوار حول الشعاب؛ فأرض الله تسع الجميع، توحدهم رغبة الحياة المشتركة فالفرد جزء هام في حياة الآخر.



يفرد البُحْرُ أُمُوجَهُ على مرمى البَصْرِ، تستكين أُمُوجُهُ في وقارٍ
وحلمٍ، كالعروس في خِدْرِها تَمَنُّطُ بنطاقِ السَيَادَةِ، مليكة
منسُدحة في عَزِّها، إَسْتِيقَظتِ الشَّمْسُ تَمَطُّمًا أَشْعَتها على البَحْرِ
مزجِيَّةَ المَاءِ بدفءِ حَرارتِها، فترى تَناعِمَ الشَّمْسِ والبَحْرِ، لوحَةً
سِيرِيالِيَّةً لَتَمَازِجٍ يَعْجُ بِأَنافَةِ أُسْطُورِيَّةٍ؛

في تلكِ اللَحْظَاتِ، وبينما الهُدُوءُ يَسْرِي مَسْرَى النَسِيمِ بِرِصَانَةٍ
لا يَخْلِجُ لِأَسْيَابِيبِئِهَا سِوَى أَصْواتِ زَعانِفِ الغَوَاصِينِ تَمَخَّرُ المَاءَ
بانتِظَامٍ ما لَبِثتْ أَنْ اخْتَفَتِ، تَعاقَبتِ تلكِ الأَصْواتُ بِانْتِظَامٍ مُطَّرِدٍ
ثم اخْتَفَتْ كُلُّها في وَقتٍ مُتقارِبٍ.

لم يَبْقَ إِلا نِسماتُ الهِواءِ العَلِيلَةُ تَغازِلُ مَقاعِدَ المِصْطافِينِ أَمامَ
مِرفَأِ الغَطْسِ، بَينما المِراكِبُ وَالْيَخُوتُ كَأَسُودٍ تَزأُرُ طالِبَةً الانْعِثاقَ
مِن رِقِّ القَيْدِ إِلى حَريَّةِ شِقِّ الأُمُوجِ بِشِغْفِ المِغامِرةِ وَالاكتِشافِ.

شَتانِ بَينَ الحِياةِ في الأَسْفَلِ وَالسَطْحِ، يَتَحَرَّكُ الجَمِيعُ في الأَعْماقِ
بِحِثِّها عَنِ الرِزْقِ كُلِّهِ عَلى شاكِلَتِهِ جِماعاتٍ وَفِرادِي، يَغْدُونُ كَما تَغْدُو
الطَيرُ تَروِجَ خِماصِها وَتَعُودُ بِطانِها، لا تُصنِّفُ كائِناتُ البَحْرِ بَعْضُها
البَعْضَ عَلى الهِويَّةِ أَوِ الجِنْسِيَّةِ وَلا تُنصِبُ الحُدُودَ وَالأَسْوارَ حَولَ
الشِعبابِ؛ فَأَرْضُ اللّهِ تَسعُ الجَمِيعِ، توحِدهم رِغْبَةُ الحِياةِ المُشترِكةِ
فَالفَرْدُ جِزءٌ هَامٌّ في حِياةِ الأَخرِ.

لا تَمَلُكُ عَندما تَرى أَسرابَ السَمَكِ تَتَهادِي أَمامَكَ إِلا أَنْ تَتَدَثَّرَ
بِ(سَبْحانَ اللّهِ وَالْحَمْدُ لِلّهِ وَاللّهُ أَكْبَرُ)، إِحْساسٌ يَسِيرٌ أَغْوارَكَ في

اتساع الكون ليرسخ في نفسك ذلك اليقين ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي
الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ ﴾^(١)

تسيرُ المجموعة على هيئة مسارٍ مستقيم كأنها سرب من
الاسماك الكبيرة تسربت بيزاتٍ سوداء وتمنطقت بحزام الأوزان
واسطوانات الأوكسجين ونظارات جعلت رؤيتها أحادية فترى ما
هو أمامك فحسب، إحساسٌ غريبٌ أن نجتمع وقد اختلفت أصولنا
وجنسياتنا، لكننا نتحد في الحركة والعمق والسرعة، اختلفت
اللغة وذابت اللهجات وأنصهرت الهوية، ليتجلى مفهوم الإنسان،
استبدلت الأبجدية برموزٍ وحدت الجميع، المصري والسعودي
والبريطاني والمكسيكي في بوتقة واحدة، فكأنما تُعيد تشكيل
بصيرتك من جديد، بأن الإنسانية أكبر مظلة نستظل بها؛

تدرك وقتها قيمة الوحدة والعزوة، فحياة زميلك مسئوليتك كذلك
حياتك، هنا نخاف بعضنا على بعض ونعي أن نجاهةً واحد هي نجاهة
الكل، إنقطع الصوت ولم يبق لنا مؤونة نعول عليها إلا بضع إشارات
نؤكل عليها الفهم، نتحرك ببطءٍ وهدوءٍ تتغشانا سكينه البحر؛

خرجنا من الغطسة، ينهش الجوع أحشائنا، تقودنا الرغبة في
التحرر من أثقال أدوات الفوص، لارتداء بزة العمل، فالיום
السبت وغداً يوجد لكل منا أشغاله، لفيف مختلف المشارب
والهوية، فمعنا حاصل على الثانوية العامة، والمستشار في شركة
خاصة، والبريطاني مدرس الفيزياء في إحدى المدارس الخاصة،

١- سورة (الأنعام: ٢٨).

والمكسيكي .. رجل الأعمال، توليفةً مِنَ الجنسياتِ والثقافاتِ لا تجتمعُ إلا في رحابِ كرحابِ البحرِ، وكأنَّ البحرَ أسْقَطَ كلَّ حواجزِ الهويةِ والثقافةِ والتاريخِ، لتبقى الإنسانيةُ هي الأشملُ لاحتواءِ الجميعِ لا مَنَاصَ.

تتصاعدُ الحواراتِ بيننا غالباً في طريقناً إلى المطارِ بين شدِّ وجذبٍ، فكُلًّا يرى العالمَ مِنْ منظوره، ولا تثريبَ في محاولةِ استجلاءِ تلكِ الرؤى وتصدِيرها للآخرِ تارةً بدعوى الحريةِ وأُخرى بدعوى المساواةِ في الفكرِ والتعبيرِ، كانوا يتغازمون عليَّ علناً عندما يتلبَّسني القلقُ في نهايةِ الغطسةِ. استعداداً للرحيلِ وأنا أسْتَلُّ نفسي تدريجياً من بزةِ الغطسِ إلى بدلةِ رجلِ الأعمالِ، فكان الكابتنُ عادةً ما يطلقُ تعليقهَ المستترُ بقوله :

-أنتَ الوحيدِ من بيننا الذي تَمَتَّك وقتكَ وظروفك فأنتَ من تديرُ عملكَ بنفسكَ، ورغم ذلك أنتَ أعجَّلنا على الرجوعِ، وكأنك موظفٌ يساقُ إلى العملِ سوقاً

وتخاتلُ جملي المفعمةً بالثقةِ جملةِ المستترةِ تلكِ

-الامرُ يتعدى ذلكَ إلى الالتزامِ، فكيف تُحَقِّقُ النهوضَ بعملك دون التزامٍ بمواعيده
فيجابهنِي بقوله:

-ولكن إنْ لِنفسِكِ عليكِ حقٌّ ..

وتطلق الهمهمات والصيحات التي تدعم ذلك، في محاولة للنيل مني، فأخترق همماتهم بصوت مرتفع لتأكيد حق الاعتراض قبل أن يتحدوا ضدي .. هذا الحق ما يجمعنا كل فترة ليست بالبعيدة لممارسة هذا الجنون؛ وبينما نتداول الحديث .. هدا الكابتن سرعة السيارة، واسترعى انتباهنا سيارات الشرطة على الجانبين مع السرينة الملونة، فوقع في ذهني إنه كمين للشرطة.

وتوقفت السيارة، فباشرنا الضابط متوجهاً إلى السائق طالباً من الجميع إظهار هويته، وبينما أفتش في ملابسي ادركت أن كل أغراضي مع الكابتن شريف، فأومت له برأسي :

-كابتن فضلاً إبرز له بطاقتي ..

فابتسم الكابتن قائلاً: حسناً لكن عندما أجد بطاقتي أولاً ..

بادلت ابتسامته بأخرى، ما لبثت أن دبلت مع نظرة الشرطي الحادة وصوته الصارم بطلب الهوية أو الترجل من السيارة، بدا الأمر للوهلة الأولى عادي، فدقائق معدودة، ويتم الكشف عن اسمي على جهاز الكمبيوتر؛

فبياناتي على بعد ضغط زر في لوحة المفاتيح، لذلك حطوت خارج السيارة برباطة جأش، فلن يعجز الشرطي في معرفة شخصي بدقات معدودة على جهاز الحاسب المركزي؛

كُنْتُ أرتدي شورت طويل مع تي شيرت خفيف، ولا أَحْمَلُ مِنْ متاعِ الدنيا إلا هاتفي المحمول، حتى الساعة هجرتُها في غرفتي بالفندق، وبينما عيني تتجافى عن السكينةِ بمطالعةِ الهاتفِ لتعرف ما تبقى على وقت السفرِ، هالني وجهُ الضابطِ متجهماً كأنما نَزَلَ عليه غضبٌ من السماءِ مدققاً النَظَرَ اليّ، فما إن حادثته حتى تَفَحَّصَنِي مِنْ أعلى إلى أسفل، ثُمَّ أمرني بالترام الصَّمْتِ والانتظارِ بجانبِ سيارته ريثما ينتهي من استطلاعِ باقي السيارات؛

تَعَجَّبْتُ وسألته مستنكراً!

-لماذا لا تَكشِفُ على إسمي في الكمبيوتر لتعرف شخصيتي؟!

لَمْ يعرني أي انتباه وأخذ طريقه متنقلاً بين السيارات وقد تأبطَّ شراً مستوقفاً هذه وساخفاً متبرماً مشيراً إلى أخرى؛

تَبَعْتَهُ متلطفناً ..عَلَّه يُنَزِّلُ النَّاسَ منازلها فما كان منه إلا أن انْفَعَلَ في وجهي صائحاً:

-لا بد أن تَعْرِفَ أَنَّكَ مقبوضٌ عليك ليس في نزهةٍ بريّةٍ ..

ولَمْ يَتْرِكْ لي مساحةً للتعليق أو الاعتراض، إلا أنْ أَمَسَكَ يديا، وقَيَّدَهَا بوضعِ الكلبشاتِ وساقني إلى سيارةٍ دفعٍ رباعيةٍ، فتح شطنتها الخلفية بيْسْرَاهُ ودفعني بيَمَنَاهُ للصعودِ داخلها؛

لوهلةٍ شَعَرْتُ أَنِّي في فيلمٍ مأساوي، حاولتُ المقاومة ولكني شعرت أن الجِدَالَ معه سَيَفْقِدُنِي مَكَانَتِي، فَرَضَخْتُ للواقع، ليقيني بأنها لحظات

وَيَتَضَحُّ الأَمْرُ جلياً، وارتقت شنطة السيارة لأجد.. كنبهً طويلةً بجلدٍ أسودٍ، تكومتُ عليها وأنا في حالةٍ ذهولٍ، تأملت الشنطة وجدت خلفي حاجزاً من زجاجٍ مقاومٍ للرصاصِ، يغطيه من الأسفلٍ حديدٌ أسودٌ خشن يغطي الجدارِ الفاصلِ إلا من فتحةٍ صغيرةٍ مغطاةٍ بزجاجٍ سميكٍ بحفرٍ دائريةٍ صغيرةٍ، تسمح بسرّيان الهواء من قمرة القيادة إلى سجنِ الشنطة؛

كانت الشنطة فارغةً من كلِّ شيءٍ إلا من كنبهٍ بجلدٍ أسودٍ طويلٍ ومقعدٍ، بطنت الشنطة من الداخلِ بفولاذٍ أسودٍ مُصمّتٍ خشنٍ تعكسُ خشونةً ملّمسه سقوط الأمل في هوةٍ بلا قرارٍ؛

.. ويظهرُ بعض ضوءٍ على استحياءٍ عند التقاءِ جانبِ السيارةِ بالسقفِ في شراعةٍ صغيرةٍ بين السقفِ والفولاذِ، لتبادلِ الهواءِ بين الداخلِ والخارجِ، تحسّستُ سطحِ الفولاذِ الخشنِ بأناملي، ملّمسه كنصولٍ من السكاكين، أتقافزُ بينهم بنظري إلى تلك الصواميلِ العريضةِ قاسيةٍ حادةِ الحوافِ كحدةٍ وحدةٍ السجنِ ويّتمه، أتلّمسُ خشونةَ الفولاذِ لانكمشُ في ملابسي الناعمةِ متلوذاً بها من قشعريرةِ الفولاذِ وقسوته.

غالبت هذه القشعريرةُ بالنظرِ إلى هاتفي الجوالِ، وجدتُ إنَّ البطاريةَ ترفعُ إشاراتِ الاستغاثةِ، فقد بلغ الإنهاكُ نهايته، حتى نُزِعَ في نفسي إنها ستخلدُ للراحةِ دونِ إذنٍ مسبقٍ، فغامرتُ بهذه اللحظاتِ الثمينةِ ونجّرتُ واتّصلتُ بشريفٍ

أنا في تلك السيارة الجيب البيضاء على يمين الطريق، أنا مسجون
في تخشبية دفع رباعي يا صديقي،

-ليس إلى هذا الحد! لأبد أنك تمرح!

-بالفعل ..

-ما الذي حدث معك؟

-لم يعرني أي اهتمام عندما طلبت منه تفحص هويتي على
الكمبيوتر أو النظام، تجاهل ذلك وعندما حاولت لفت انتباهه
قادني إلى التخشبية كما يقود بقرة جافلة عن القطيع فنهرا
ودفعها قهراً للامتثال للمسار الذي يحدده، وقيدني بالكلبشات
وصرت يا صديقي بين جدران أربعة من الفولاذ ولكن
لحظه، كيف تركك ولم يأخذك معي؟

-كل ما في الأمر إنه طلب هويتي فاعتذرت له عن ذلك، فسألني
صورتها فوجدتها على الهاتف، فأعفاني من السؤال وأطلق
سراحي ...

-ولماذا هذا التمييز يا صديقي؛

.. أليس من الأجدر أن يراعي ذلك معي أيضاً، لماذا لم يسألني
نفس السؤال! ألا ترى أن الأمر فيه شيء من المزاجية والتمييز؟

-ليس هذا محور حديثنا الآن ..

- سأتوجه للفندق لإحضار هويّتك على أنّ الأليّك في أقرب مكانٍ ستكون فيه لأُخرجك من هذه الورطة،

- لكن اسأل الضابط إلى أين ستتحرك السيارة حتى نلتاق ..

- يا صديقي .. سيَلْفُظُ تليفوني أنفاسه الأخيرة بعد قليل، لذلك سأحاول أن أحافظ على ما تبقى له من طاقةٍ بأن أجعله في انتظار اتّصالك،

- يجمعنا الخير ..

- لا تتأخر ..

- وهو كذلك ..

مرّت الدقائق مُظلمة حتى فَتَحَ الضابطُ بابَ الشنطةِ من جديد ولكن هذه المرة ليُدخلُ شخصاً إلى التّخشيبة،

.. تأهبتُ بالسؤال عن وجهةِ السيارة للضابطِ إلا أنه لم يعطني فرصةً

وسرعان ما أغلق باب الشنطة في وجهي .. وَقَفَلَ عائداً، كان الشخصُ باكستاني الهيئة .. قَمَحِي الشكل، ذو شعرٍ كثيفٍ أسود، ناعم، يرتدي ملابسٍ عاديةً، بنطلون قماش بني متسخ، عاقرتُ الشمسُ لونه حتى ذهب.. مع قميصٍ مقلّمٍ بخطوطٍ رفيعةٍ متعددة الألوان بين الأخضر والأزرق والبني .. في تجانسٍ قضى عليه اهتراءٌ خامّةٍ القميص وتهالكُ بعضُ أجزائه عند الكوع.

لحظات... في عُرفِ الزمنِ دقائقُ وفي عرفِ الحبيسِ سنينٌ ..
جاء الضابطُ مرةً أخرى وفتحَ الشنطةَ دون أن يَنبِسَ ببِتِّ شَفَةِ
و دَفَعَ أحدهمَ للدخولِ، كان شاباً عربيَّ الملامحِ هذه المرة، كالحِ
الوجهِ.. ذا شعرٍ خشنٍ، يرتدي قميصاً يشي لونه بأنه كان يوماً من
الأيامِ أزرقٍ و”بنطلون جينز“ عتيقاً كأنما ينافس الزمنَ في قَدَمِهِ،
وكانما أصبحت الشنطة سجنًا صغيراً يساق إليه المظلومون من
كلِّ حدبٍ وصوبٍ فما هي إلا لحظاتٍ وتم فتحُ الشنطةَ مرةً أخرى
ليُدخِلَ شخصاً آخرًا، عربيَّ الهيئةِ أبيض، لكَنَّتُهُ تُوحي بأنه من
أهلِ الشام، ودوداً وإن اهتاجت ملامحُه بفرعِ الموقفِ، ورَاغَتِ
عيناهُ بين النازحين متشوقاً لما يجري، ثم ما لبثت أن استكانت
وكانما تزلمت بالتسليم واليقين، وها أنا أتقلب على جمرِ الصبرِ
الوذُّ بالأمل في أن يَمُنَّ الضابطُ عليَّ بمعلومةٍ أسوقها إلى أصدقائي
لينتهي هذا الكابوس،

والدقائقُ حُبلى بالانتظارِ، والوقت لا يمضى.

تعلقتُ عيناى ببابِ الشنطةِ من جديدٍ ..

بابٌ يَفصلُ بينَ السجنِ والحريةِ وبينَ حياةٍ وحياة .. وكالعادة
إنضم سجينٌ آخرٌ إلى سجناءِ الشنطةِ، فعاجلتُ الضابطَ بالسؤالِ

-أين نحنُ الآن؟

فردَّ باقتضابٍ دونَ أن ينظرَ إليَّ، ويداؤه تهمُّ بإغلاقِ البابِ ..

-شارع الكورنيش

-لقد تَحَدَّثْتُ إلى زملائي، وهم في طريقهم إلى هنا،

-أبلغهم أن يتبعوك إلى ساحة الوادي الكبير فلن أتوقف هنا كثيراً

قال ذلك ولم يعطني أى وجهٍ لأستفسر منه فأغلق باب الشنطة
قاضياً بانتهاء الحوار.

لحظات وسمعنا باب السيارة الأمامي يُفَتِّحُ، استدرتُ برأسي في
محاولة لاستشفاف ما يجري في القمرة الأمامية من بين تلك
القضبان الفولاذية الخشنة التي تُغطي الزجاج، شاهدتُ بعض
أوراقٍ ملقاة على الكرسي بجوار السائق، دقائق قليلة أعقبها دخولُ
الضابط إلى السيارة لتتطلق السيارة بحدة ورهقٍ على الطريق .

للهولة الأولى إنتابني شعورٌ غريبٌ .. بأننا بضاعةٌ مزجاةٌ، مجموعةٌ
من الآدميين يحشرون في شنطة سيارة دون أي احترام لآدميتهم،
وجوهنا تتصادمُ بحقيقة الموقف البائس، وترتجُ أجسادنا مع
حركة السيارة فوق المطبات كأننا أفضاصٍ من الخضراوتِ تَفزَعُ
في كُلِّ مطبٍ تَلقَمُه السيارةُ.

أتبعُ حركة الطريق لا شئ يشي بالحرية إلا بصيص شعاعٍ
يتلصصُ بين قضبان الشراعة الجانبية

ما أفسى أن تُسلب منك حُرِّيَتِكَ في لحظةٍ واحدةٍ دون مقدمات،
فقط لأنك نسيت هويَّتك

وكانما الهوية هي بطاقة الاعتراف بالحياة

وبدونها أنت لا شئ لا دلالة لوجودك ..

مُجَرَّد اسم مهمور على ورقةٍ تحمّلُ صورةً ضوئيةً.

المطباتُ تُقلِّبنا كما يقلِّب الدجاج في الزيتِ الحارِ، لا نكادُ نَسْتَقِرُّ على الكنبة حتى نتقاذزَ كحباتِ الفيشارِ المجنونةِ، مضت عدّة دقائقٍ ثمّ توقفتِ السيارةُ، مددت عنقي أستطلعُ الأمر من مساحةِ الهوية فوجدته تَرَجُلُ مُمسكاً أقماغَ المرورِ البرتقاليةِ بكلتا يديه ليضعها في منتصفِ الطريقِ، و اتّخذ مكانه بين الاقماغِ متأهباً مستوقفاً السيارات، طالباً منهم الهوية.

ابتلعتُ ريقِي وقد بلغ ظنِي إن اليومَ سيكون طويلاً ولمّ تمض لحظاتٍ حتى فتح الضابطُ الشنطةَ مرةً أخرى؛

ليزجُ بأربعةِ اشخاصٍ مرةً واحدة، ملامحهم أسيوية، تحوّلت الشنطةُ لعلبةِ سردين

افترش الجدد أرجلهم على أرجل بعض، وتخبّطت الأجساد بفعل الزحام، وتعالّت الأصواتُ والضوضاء بين مَنْ يتحدثون مع بعضهم البعض، ومَنْ يتحدث بالحوالٍ لا أفقه من حديثه كلمة واحدة، وآخر يتحدث مع أحدهم بالعربيةِ بحروفٍ مكسرةٍ ويستشيرُ من أمامه في كل كلمةٍ لتصحيح الترجمة.

مزيجاً يدعو للإحساس بالقهرِ

وقد نَعَمْتُ بجلوسي على الكنبِ بينما عاث الاضطراب الشنطة
بمن جلس وانضغط وازدحم.

سألتُ زميلي عن الساعة، ولازال الأمل يراودني إننا رغم كلِّ ما
حدَثْ نستطيع اللحاق بركبِ السفرِ، أَعْتَنُقُ اليقينَ في قلبي بأن
يأتي زملائي بهويتي وينتهي الأمرُ عندَ هذا الحدِّ

حاولتُ أن أطمئنُ بالحديثِ مع زميلي فعرفته باسمي وسألته عن
اسمه فقال :

-جلال

فرحبتُ به مستأنساً..

-مصري

-لا .. يمني

-أنعم وأكرم ..

-من أين من اليمن السعيد ؟

-نظر إليّ من أعلى إلى أسفلٍ .. تعزّ

-أحسن ناس ..

-وماذا كنتُ تفعل عندما التقتك الضابط ؟

-في طريقي إلى العمل ..

-وماذا تعملُ؟

-مليّس (١) ..

إجاباته مقتضبة وعيناه زائغتان، مشاعره مضطربة، حاولتُ أن
أسرّي عنه ..

-إن شاء الله خير، لا تقلق فشدّة وتزول ..

التفت إليّ بنظرة جامدة يملؤها الحزنُ

-لا مناص يا صديقي سوف يتمّ ترحيلي فأنا بدون أوراق ثبوتيه،

أجبتّه بدهشةٍ

-مُنذ متى وأنت هنا في البلادِ؟

فأشار بأصابعه ثلاث سنواتٍ، دون أن يثبت بينتِ شفّةٍ،

-ثلاث سنوات ولا يوجد معك أوراقٍ نظاميةٍ؟! لا بد أنّك تمزح

نظر إليّ بأسّي وقد أنطقه الحزنُ .. قائلاً في نبرةٍ متحسرةٍ :

-الحربُ لم تجعل لي رفاهية المزاج، الحربُ أكلت الأخضر

واليابس، لم يكن لدينا خياراً آخر بعد انفجار الحرب وتوسّع

الاشتباكات بين المسلّحين إلى جوار منزلي، سوى الانتظار وانتهاز

الفرصة حتى تهدأ المعارك قليلاً ومن ثمّ الفرار والنزوح.

١ - عامل بناء باللهجة اليمنية

الرعبُ كان المغتصب الذي انتَهك كلُّ حُرَمَاتنا فاستباح نفوسنا
ومشاعرنا واليقين في قلوبنا

كانت أشباحُ الموتِ تهافت علينا والسقوط في بئر اليأس يروادنا،
لَمْ نكن نَتخيلُ أَنْ ننجو، فنقاط التفقيش التي نصبها المسلحون
المتقاتلون في الشوارع العامة لا تعد ولا تحصى،

القنّاصة يتخذون من المباني العالية موطناً لهم ويحتسبون أنهم
حُرّاس بوابة الانتقال إلى الآخرة، فيطلقون النار على المارة دون
التحقق من هويتهم، قتلٌ لمجرد المتعة، يلهب حماسهم صوت
الرصاصة المتناثر .. فينتشون بقنص المارة والحظوة لمن أجاد
وأسهب...

وسارت الرياح بما اشتهدت السفنُ ونجونا - بحمدِ الله - وتمكنا من
الفرار من المدينة إلى قريتنا "عزبان" الواقعة شمال "عزاز" ومن
ثم جئنا إلى هنا، .. وها أنا أمامك ..

كنتُ استشعرُ مأساته كلمة، كلمة وأنا على يقينٍ بأن كل ما أحاول
تمثله لأيضاهي جزءاً صغيراً من الحقيقة، وبحركةٍ لا إرادية فتحت
مُجلد الصور في الهاتفٍ لأتحقق من صور أولادي، شعرتُ فجأةً
بالغربة، بالحاجة إلى الاحتواء برؤيتهم ووجدته يتلصص النظرِ
ثم أشاح ببصره سائلاً :

أولادك؟

أومأت برأسي بصوتٍ خفيضٍ، نعم

حفظهم المولى لك ..

-أمين

حاولت أن اخرجُ من ذلك الجوّ الحزين فقلت .. ” مُتعبين يا صديقي.. لا شئ يعجبهم، ملكتُ من كثرة طلباتهم وخصاقتهم وجدلهم“

إهتم بهم .. واحرص على رعايتهم..

كنتُ مثلك .. إلى وقتٍ قريبٍ ..

فضحكت ههههه كلهم هكذا

تاقت عيناى زميلي اليمنى ولمعت وهو يتحدثُ إلي دون أن ينظارني، جئت بهم إلى هنا،

وعاشوا معي ستة أشهر، قلتُ لها امكثي معي أكثر ..

فأجابت:

اشتقتُ للمة البيتِ ، اشتقتُ لأبيك حين يُحضّر الفطورَ والاطفال يتحلقون حوله وأنا أتبادل الاحاديث والنكات مع اخوتك..

هنا أشعرُ أني في سجنٍ... لا أعرف أحداً ولا أحد يعرّفني ..

-ولكنَّ الوحدة تَقْتُلني في بَعادكم،

أصرتُ على الرحيلِ، فالتحفتُ بالصبرِ ونقلتهم إلى تعز وما إن تحرّكت بي السيارة ووصلتُ إلى هُنا .. حتى سَبَقني حَبْرُ قذيفةٍ سَقَطت عليهم فصعدت أرواحهم كلهم إلى الله ولم يَبْق إلا أبي دون أقدام تحمله ..

كاد قلبي أَنْ يَقِفَ من تخيلِ الحادثة، إلْتفت إليه لَمْ أجد على وجهه أي تعابير لحزن أو ألم، كأنما يلبس قناع من فولاذ، وكأنما تجمّدت حياته عندَ تلك اللحظة ..

صمتُ .. وصمتُ ..

وأنا أحاول الهرب من فجاعةِ الحادثة متمتماً بالمواساة .. ومتهيباً من فتح الحوار مرة أخرى ..

مرّت الدقائق ثقيلة مشبعة بأحاديثٍ تتشابك كأنها خيوط عنكبوتٍ، لا تعرفُ بدايتها من نهايتها كُلها بلغاتٍ غريبةٍ، بين الهندية والأردية^(١) الملايوية^(٢) .. لا تسمع حرفاً عربياً يُقال...

لَمْ تمض دقائق حتى التفتُ إلي الشخص العربي ذو الملامح الشامية سائلاً ..

١ - اللغة الأردية لغة هندية آرية وهي اللغة الرسمية في باكستان.

٢ - اللغة الملايوية هي اللغة الرسمية لكل من ماليزيا، وبروناي، وسنغافورة، وتستخدم أيضاً للأعمال في تيمور الشرقية، وهي مشابهة إلى حد كبير للغة الإندونيسية،

-وين رايع هالرجال؟

فرددت سينتهي بنا الأمر إلى الوادي الكبير.

-وبعدين شورح يصير؟

-لا علم لي ولكن الأغلب الإجراءات ستنتهي إلى محضر واتخاذ
الإجراءات الرسمية ..

من لهجتك أستطيع أن أقول أنك لبناني ..

-لا والله من حمص حبيبي، حمصي

سوري الجنسية، حمصي الهوية ..

- يعجبني هذا الاعتزاز الرائع بمدنكم، ما أجمل سوريا وطُرقاتها
وأشجارها وأجواءها!

- كانت يا صديقي ... سوريا الآن هي أشلاء ممزقة، نحن نتمثلُ
التاريخ فقط ليربطنا بأن لنا أرضٌ هناك، بينما عصفَ الواقعُ
بمقدراتنا، لنصبح شعباً جديداً بلا أرض، كُنّا نيكبي فلسطين لأننا
خذلناها ونحن "صغار"، الآن بكينا العراق والشام واليمن وليبيا ..
أصبح حالنا كله يُرثى له.

-لعلّ الفرج قريب - لعلّ الله يحدث بعد ذلك أمراً -

-يا زميل المحبس..هناك قاعدة إلهية تقول:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^(١)

حاولتُ دفع الحديث إلى مناطق أُخْرَى، فسألتَه عَن نفسه وعمله،
فانطلقَ يحدثني عن هروبه من أتون الحربِ إلى هُنا، ثُمَّ كيف بدأ
يَعْمَلُ بشكلٍ غيرِ نظاميٍّ ليكفُلَ أهله في سوريا

-الواقعُ يدمي يا صديقي، لذلكَ نحنُ نَهْرَبُ منه بالأخبارِ الخفيفةِ،
والانشغالِ بصغائرِ الأمورِ، الواقعُ مؤرّقٌ، فنتغافلُ عنه بأنْ نهملهُ
ونغيرُ قنواتِ الأخبارِ على أشياءٍ أُخْرَى.

وكأنما اختصرنا إبادةَ شَعْبٍ في خبرٍ تحريري في جريدة، وقد
أصبحت تتهافت علينا الهوامُ كما تتهافت الأكلةُ على الفريسةِ.

كان كلامُه حاداً كقطعناات سكين، تتناوبُ يمناً ويسرة في جسدي ..
لذلكَ اتَّخَذْتُ مِنْ هاتفي ذريعةً للهربِ من الحديثِ ولربما للهروبِ
من إحساسِ الضعفِ والمهانةِ.

فتحتُ هاتفي مرةً أُخْرَى ، واتصلتُ بالمدرِّبِ

أشعلت لمبةَ البطاريةِ الحمراء مع كل رنةٍ يعلو هاجسِ الفقدِ

الرنَّة الأولى ..

الثانية ..

١-سورة (الرعد:١١).

-نحنُ في الطريقِ إليكِ ..

-يا صديقي بالله عليكِ أسرعِ ..

-أحضرننا الهويةَ وفي الطريقِ .. أين أنتم الآن ؟

-نحنُ في طريقنا إلى الوادي الكبير كما أخبرني الضابط

-حسناً لا تجزع يا صديقي .. وتمثل الصبر فإنه مفتاح الفرج ..

إلتفتُ إلى زملاء الزنّانة فوجدتُ أحدهم مشغولٌ بمراجعة أوراقه
الثبوتية وآخر يتحدثُ في الهاتف دون أي مُبالاة، بينما هناك من
أطرق رأسه حزناً وأسندَ رأسه بين كفيه هائماً في ملكوت الله

وفجأة... توقفتُ السيارة مرة أخرى،

فتح الضباطُ بابَ السيارةِ ثم وَّزَع علينا قارورات مياة مُثلجة ثم
أغلق الباب دون أن ينبسُ ببنت شفة.

فتحت الزجاجاة، أرتشفتُ منها عدة رشفاتٍ وأغلقتها

تحركتُ السيارةُ مرةً أخرى تراوغ بين حارةٍ وشارع، ونحن
نتدحرج يمنةً ويسرةً .. نتقافزُ إلى أعلى كحباتِ الأرزٍ تتطايرُ على
المنخُل⁽¹⁾، وبعد رحلةٍ دُقنا فيها تضاريس الارتفاعِ والانخفاض،
توقفتُ بنا السيارةُ في منطقةٍ مكتظةٍ بسيارات الشرطة، وقد

١-المنخل أو الغربال هو اطار خشبي مستدير يغلف باطنه بشبكة من السلك الناعم المنفرغ و يتم استخدامه في تنقية الرز من الشوائب .

ارتص أكثر من عشرين سيارةً بجوار بعضها البعض.

توقفت السجن المتقل، نزل الشرطي ثم أتجه إلى الشنطة وفتحها:
-أنزلوا ..

ثم تركهم جميعاً والتفت إلي قائلاً:

-أنت... إذا لم يحضرُ اصداؤوك في غضون عشر دقائق، سأحول
أوراقك إلى النيابة، وهناك ستكون الإجراءات أعقد بكثيرٍ من
هنا.. فصحتُ به:

-أي نيابة! الأمر كله أنني نسيتُ هويتي في الفندق، وأصدقائي
سيحضرونها الآن .. كما أنك أخبرتني إنك تستطيع أن تراجعُ
بياناتي على جهاز الكمبيوتر المركزي، فما الداعي للتحويل إلى
النيابة ؟

-الأمرُ ليسَ كذلك، لا بُدَّ من عمل محضر إثبات لوجودك معي
بالسيارة، ولن يتحقق الإخلاء إلا بوجود من يكفلُك في النيابة .
هممت بالرد ..

فلم يعيرني انتباهها وتركني وفتح باب السيارة ميمماً وجهه ناحية
الباب مخرجاً دفتر المحاضر وأخذ يُشير لرفقاء السجن أن يتقدم
كل منهم على حده، ثم التفت إلي مرةً أخرى ..

-آخر وقتٍ مسموحٍ لديك ..

هو مع آخر شخص أكتبُ محضره ، بعد ذلك أنت في ذمة النيابة .
أخرجتُ تليفوني لأتصل بأصدقائي، وجدته أعلن وفاته، رحمتُ
أنظرُ في الطرقاتِ علني أجدُ شبح سيارتهم في الأفق .. فلم أجد
شيئاً،

أعود النظر إلى الضابط والطابور يتناقص واحداً تلو الآخر ..
والعد التنازلي يبدأ

أخذتُ أسأل الناس على الساعة، وعيوني تنتظر أي بادرة أمل،
حتى رفع الضابطُ صوته وهو منهمك في كتابة محاضر الآخرين
-تبقى لك اثنان وتشرفنا على توقيف النيابة .. سَتُسَرَّ به
- إن شاء الله-.

كنتُ أنظرُ إلى ابتسامته الساخرة وقد علقت كل آمالي بهذه الدقائق
البسيطة، متخيلاً نفسي أكمل هذا اليوم بالمبيت في التوقيف⁽¹⁾ ،
على أن أتصلُ بأحدٍ من معارفي أو عملائي ليأتي ويكفُلني .
ناداني الضابطُ ..

و أخذ يسألني عن بياناتي، وبينما أنا أعصُ على شفاهي لحظات
الندم، وجدتُ سيارة شرطة قادمة وقد علا صوتُ السرينة وخلفها

1-الحجز وعادة ما يكون غرفة داخل قسم الشرطة حتى يتم عرض المتهمين على النيابة .

سيارة أصدقائي؛

السيارتان تسيران بسرعة، وقد فتحت سيارة الشرطة المجال
لسيارة أصدقائي بالمرور دون عواقب، حتى دخلت نطاق قسم
الشرطة ونزل صديقي بسرعة،

أخبره شرطي بضرورة إخراج السيارة خارج حرم القسم،

فاستأذن دقائق ليسلمني هويتي قبل أن يحرك السيارة، وهرولاً
حتى لا قاني .. فابتسم الضابط ابتسامة صفراء قائلاً:

-للأسف بدأنا في المحضر ..

إلتفت إليه، والشرر يتطاير من عيني وقلت :

-ماذا يعني ؟ ..

-لا بد أن تُرحل إلى النيابة ..

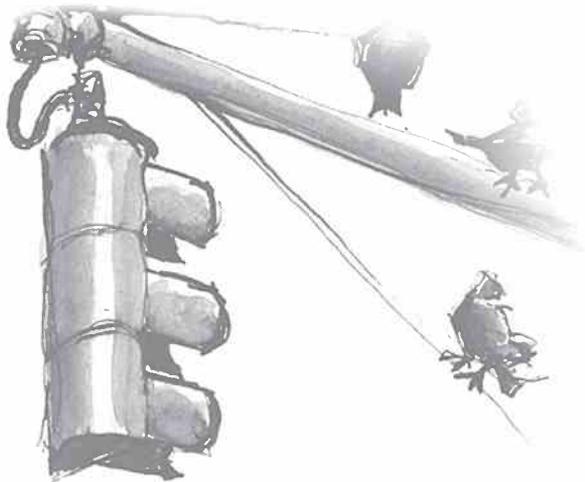
ارتفع صوتي وأنا أُجادله،

فجاء ضابط كان يسير بجوارنا، فسأل عن الواقعة. فرد الضابط
عليه بأدبٍ جمٍ ..



فأشار الضابط .. قائلاً
إذا حضرت الهوية بطلَ سبب التوقيف.
تكفيك هويته يا زميلي
الهوية تكفي ...
دعهُ يرحلُ.







إشارة حمراء



الإشارة حمراء والطابور طويل، والمحلات تتنافس بعرض زينتها، هاجت مشاعر الشوق لرائحة الطعمية المصرية وخاصةً وأن هذا المحل الوحيد الذي يقدم الطعام المصري في هذه المنطقة، استسلمتُ لحنين الطعمية الساخنة، ركنتُ سيارتي على جانب الطريق، ودلفتُ للمحل لشراء بعض منها.





-ربّما مع إجازةِ نصفِ العامِ يا نسرين ..

مشغول هذه الأيام، الأعمال لا تنتهي،

نعم سأسافرُ إلى الصين الأسبوع القادم لإنهاء صفقة الماكينات...

أعرفُ

أعرف

ولكن لن يسعني الرجوع من الصين كي أسافر إلى مصر

لديّ التزاماتٌ أخرى هنا ...

كفى يا نسرين أرجوكِ

أنا لَمْ أَهْمِكِ يوماً ...

العمل ليس أهمُّ منكِ،

ماذا أفعلُ أخبريني؟

تعبتُ يا نسرين، تعبتُ من كثرة الضُّغوط.

-ألمَ تعد تحبُّني؟

-بالتأكيدُ أحبك

لكن لا أعرفُ ماذا أصابني اليوم

يجتاحني شعورٌ جارِفٌ بالغرابةِ والتّيه!



سامحيني حبيبتي

أفتقدكم بشدةٍ

سأعودُ الاتصال بكِ عندما أعودُ للمنزل.

خمسُ دقائق فقط تفصلُنِي عن المنزل، أرافق هذا الطريق منذ أكثر من ستةِ أعوامٍ، يُقَارِعُنِي التفكير في الانتقال إلى بيتٍ يجاورُ عملي، يرحمُني من استنزافِ ما تبقى من يومي في القيادة وسط طُرُقٍ مُتخمةٍ بالسيارات.

”على الطريق يُصافِحُنَا الصباح مُضَعَمًا بالأمل، في كَفِّهِ باقات وُدٍّ ونسائم حُبٍّ يهمسُ في آذاننا، يومٌ جديدٌ مُشرقٌ سعيد، صباح جديد عليكم أيها السادة المستمعون نلتقي معكم في برنامج السادسة صباحًا .. صباح النشاط“.

هذه هي الشارة التي يستهلُّ بها صباحي كل يوم، مع بدءِ إرسال الإذاعة وأنا ذاهبٌ إلى العمل، فأكون أول من يَطَأُ باب الشركة، وآخر من يخرج...

خمس دقائق أشعر أنها طويلةٌ، مُملةٌ، رتيبةٌ، أُحسُّ بثقلها على أنفاسي كجبالٍ تكوَّنت بشكلٍ مُتراكمٍ على مدار سنواتٍ طوال.

لا أعرف، إن كان هذا الشعور ينتابُنِي لوطأةِ المسؤولية من تبعات منصبِي رئيسًا تنفيذيًا لشركةٍ تجاوزت فروعها الاثنى عشر فرعاً

داخل البلاد وخارجها !

أم نتاجًا لإحساس الملل الذي أصابني من عُربةٍ
امتدت عشرون عاماً.

أثارَ انتباهي توقُّف السيارات عن الحركة ووجود شرطيٍّ على حافةِ
الطريق يفصلُ بين متخاصمين وقد صاح:

-أنت مواطن ولا أجنبي؟

-والله ما بعرف إذا فيك تسميني مواطن ولا أجنبي، لكن اللي
بعرفه إني عربي!

-أبو الشباب ما تتفلسف، أعطيني إقامتك..؟

أغلقتُ النافذة، فلم يسترعني مُشاهدةُ باقي المشهد، فبالرغم
من النجاحات التي قد تُحقِّقها في الخارج
يَظُلُّ الوطن وطنًا شئت أم أبيت.

يَتَنَابَتِي حنينٌ صاخِبٌ إلى أمي وأبي -رحمهما الله- أفنقد دفاءَ
الأسرة بعد زواج ابنتي ”خولة“ منذ ثلاثة أشهر، واستقرار زوجتي
في شقتنا في مصر الجديدة بعد أن دخل ”أيهم“ الجامعة، وحالَ
الحَوَلِ على ”فِراس“ في الثانوية العامة.

- كل سنةٍ وأنت طيبٌ يا حبيبي

- كل سنةٍ وأنت طيب يا بابا .. يا أحلى أب في الدنيا

التفَّ الأولاد حولي، وكلُّ يحمل هديته بين يديه، ونسرين تطبعُ قبلةً
حانيةً على خدي، والأولاد يصيحون في صوتٍ واحدٍ:

- أغمض عينيك لتري الهدايا

لتغمرنى نسرين والأولاد بهداياهم الجميلة وكلماتهم الرقيقة،
وهمَّس نسرين الدافئ في أذني:

- كل سنةٍ تزدادُ فيها وسامةٌ وجاذبيةً.

ها قد بلغتُ السادسة والأربعين، كأنه عمرٌ لم أعشه، قضيتُ أغلبه
غريبًا بين أحضان الغُربة؛ لا أصدقاء ولا زملاء؛ كلهم مؤقنون،
الغربة كأسٌ من الماءِ بطعمِ الحنظل.

مُعَيَّبُونَ أولئك الذين يحصرون النجاح والسعادة في الغُربة فقط؛
يفغلب عليهم الظنُّ بأن المغترب يحصدُ أمواله في أجولةٍ، أن
المغترب إلى بلد خليجي يُعيَّن في وظيفةٍ أمير، وتكون أجرته في
نهاية كل شهرٍ براميل عدة من البترول!

قطع دابر الفكرة رنين الجوالِ مصحوبًا باسم الدكتور يسري
صديقي في السفارة المصرية:

لا بُدَّ أنه سيُحدِّثني في إيجاد فرصةٍ عملٍ لوافدينٍ جُدد بعد أن
نكث الكفيل عهوده أو كفالتني لمن يحترفون المغامرة ولم يلتزموا
بالأنظمة

لم يطل الرنين، فكأنما غيَّر المتصل رأيه؟
فأرجأتُ معاودة الاتصال به حتى أصل البيت

اجعل كل أوراقك في حزامٍ على وسطك

كن حذراً

لا تصاحب أحداً لا تعرفه

الناس في الغربية يتغيرون

اترك عنك هذه الطيبة

لا تكلف نفسك ثمن الاتصال بنا في الفترة الأولى حتى
تستقر أمورُك، حوِّش مرتبك، امسك على نفسك، ما ”تبعزقش
فلوسك عمال على بطال، القرش الابيض ينفع في اليوم الأسود“

-لقد حفظت هذه الوصايا يا جابر فقد كررتها عليّ أكثر من خمس
مراتٍ للآن

-لستُ صغيراً إلى هذا الحد!

أغرورقت عيني جابر بالدموع وهو يحتضنني:

- أوعى تنسى نفسك يا شهدي

رفعتُ رأسي بنظرةٍ حادةٍ، كلها - عدة سنوات - أقفُ على قدمي
وأعود مرةً ثانية

أنا لستُ كالأخرين، الحياة بدونكم ليست حياة، فكيف تطيبُ
الحياة دون لقاء يوم الجمعة الذي يجمعنا على مائدة غداء واحدة،
كيف أتسّمُ الصباح دون أن يكون مُعبِّقًا بدعوات أُمي!

أُمي.. أين هي الآن؟!

بحثتُ عنها .. يا حجة!

يا أم جابر ...

يا أم شهدي ..

يا ست الكل

أجابني الصَّمْتُ، وشيءٌ من نسيجٍ مكتوم، فأزعمتُ دخول غرفتيها،
فردّني صوتها مُتَحَشِّرِجًا طالبةً مني التريُّث لتفتح الباب. عيناها
تتلاّآن بدموعٍ محبوسةٍ محاولةً التماسك كي لا تصبغُ فرحتي
بالسفر بترج الفراق:

”حبيبي يا شهدي .. أنت نور عيني وقلبي، أنت أصغر إخوانك، مش
متخيلة إنك تسافر، محدش منكم سافر قبل كده وسابني، ومش
عارفة الأيام هتجمعنا ثاني واللا لا...“

أنا كبرت ولم يبقَ في العمر مقدار ما مضى كان نفسي تفضل
جنبي أشوف أولادك وأربيهم، فإكر لما قلت لي حكاية الشيخ
الجيلاني⁽¹⁾؛ لما سافر من بلده علشان يطلب العلم وأمه ودعته
ورجع ومش لاقاها.. أنا حاسة إنك هترجع مش هتلاقيني يا
حبيبي

قطع جابر حديثها:

- "استهدي بالله يا حجة، كل شئ يعلم الله

يا عالم ربنا كاتبنا إيه!"

انفطرت القلوب حزناً، ولم يعالجها إلا ابتساماً أُمي وهي تمسحُ
دموعها وتقبِّلني داعيةً لي بأن أعود إليها سالمًا غانمًا.

ومرَّت الأيام، يُطارِدُني حلمُ الاستقرار بشقةٍ، أعقبه حلمُ سيارة
تنقذني من براثن المواصلات، فمدراس أجنبية أضمن لأولادي
بها مستقبلاً. وأصبحتُ كالثور في ساقية الغربية

وما عاد لي من رادعٍ غير نفسي

تيت تيت تيت ..

1- للشيخ عبدالقادر الجيلاني قصة شهيرة عندما ذهب يطلب العلم وأمه شيخ عجوز وكانت تحبه حباً
جماً فغالبت حياء ووافقت على سفره وعندما عاد كانت قد انتقلت إلى الرفيق الأعلى



-يا خوي وراك ما تمشي، تبيني أدفك^(١) ولا وشو^(٢)؟

لا أعلم تفسيراً لهذا الجنون، الطريق غاصَّ بالسيارات كبحرٍ يعُجُّ
بالأمواج، فهذه تلاحق تلك في حركاتٍ متتاليةٍ، ببطءٍ وكأنَّ الناس
قد أُبْهِمَ عليهم ذلك والْغَزْرُ، فلا يروُنَ ذلك أو يتجاهلونهُ
فالسيارة التي بجواري ليس لها مُتَّسَعٌ، وَمَنْ خَلَفَهُ يُصِرُّ على أن
يسمم آذاننا بِاللحاحه.

مات جابر بعد كفاحٍ طويلٍ مع المرض، لم تتجاوز مساهماتي فيه
إلا تحويلات نقدية فحسب...

لم أُهوِّنْ عنه، لمْ أرافقه للمستشفى إلا مرات معدودات، لم أمسح
على شعره وهو على السريرِ الأبيض، لم أملأ عينيَّ بملامحه.

مات السَّنْدُ الذي أتوكأُ عليه، ولا أدري أفارقني أم فارقته!

و تمرُّ السنوات لتتزوج ابنته، ولم ألتقِ زوجها إلا مرتين؛ الأولى
عند خطبتها والثانية في ليلة العُرس.

تخرَّج أولاد إخواني من الجامعة وأنا كعُصفورٍ يحطُّ على عُصْنِ
لحظاتٍ بلا وطنٍ يؤويه كالغريب.

الدقائق تمرُّ حُبلى بالذكريات

١- أدفك

٢- تعني الاستفسار باللهجة الخليجية



والسيَّارات مُتراصَّة بظاهر يعبر عن ثقافة الالتزام وباطن يُبرِّزُ
ثقافتنا كشعوب عالمٍ ثالث.

(تيت..تيت..تيت..)

غير معقول هذا الهوس بالسرعة...

الإشارة ما زالت حمراء، ومن خلفي يطلق بوق سيارته، وكأنما
يلتَّهم الأسفلت في مَضمار سباقٍ، انتحيتُ جانباً لأسمح له
بالمرور، وأن يلحقُ بسرعته الجنونية الإشارة الحمراء التالية على
بداية الطريق.

”الغربة كربة، يا بني“ قالتها أُمي، وعشتُها بعد أن كبر أولادي؛
اضطرتُّ لأن أنكث عهدي وأتركهم في الوطن فرادى، وأعود
كشبح بلا روح، دوره اكتناز المال وتحويله لهم.

راحة يدٍ ناعمةً تكتسي قُفَّازاً أسود تطرق زجاج السيارة بشكلٍ
رُوتيني، تنتقل من سيارة إلى أخرى حتى جاء الدور عليّ، تشَّخُ
المرأة بالسواد من قمة رأسها لأخمصي قدميها، تشيرُ إلى فمها
طالبة الطعام، فالصوت يفضح اللهجة ويهتك ستر الجنسية التي
تلتحفُ العباءة السوداء ساتراً

في الغربة يسقط البعض في فخ ميكافيلي⁽¹⁾، حيث كل الوسائل
متاحة لتحقيق غايتهم، فكل القيم والأخلاقيات معروضة للبيع في

1- مؤلف كتاب الامير وصاحب مقولة الغاية تبرر الوسيلة.

سبيل مبلغٍ من المال

التفت إليها ثواني، فلم تمهلني لأردَّ عليها، فأشاحت بوجهها سريعاً
مُنْتَقِلَةً إلى زُبُونٍ آخِرٍ.

التفتُ إلى الطريق متأملاً استقامته، تقطعه إشارتان للمرور،
تتجاوز على جانبيه محلات الطعام وزينة السيارات .. تأملتُ
المركبات من حولي، كل منها في عالمٍ مختلفٍ، من يسمعُ الكاسيت
بصوتٍ عالٍ، وآخر مشغول بهاتفه المحمول، وثالث يمسك الجوال
ليصور أصدقائه، وهم يتبخثرون، وقد تشبَّثوا بجانب السيارة،
والأيادي الأخرى معلقةً بباب السيارة المفتوح، وأرجلهم ترَكُّلُ
الأسفلت في حركاتٍ راقصة، والسيارة تمشي على استحياء كأنها
إحدى الرقصات التراثية.

- اجلس يا شهدي ... أعرفُ أن هذه هي أول مرة تسافر فيها خارج
مصر، لكن لا بُدَّ أن تعي شيئاً مُهمًّا، أن ثقافة الحياة هنا مختلفة،
الاستهتار سمةٌ للبعض حيث يناوشون العبث فيغلبونه

الاستهتار يشمل كل شيء؛ بأشغال الناس والتزاماتهم، السيارات
هنا لا قيمة لها، ويصل الاستهتار في بعض الأحيان بحياة الناس
ككل. فبعض الأمور تحتاج إلى سَعَةِ صدرٍ، ولا أريدُ أن يتكرر ما
حدث مع زميلك نايف، وطني أنك ستكون شيئاً مميّزاً في مجالك
بعد سنواتٍ قليلة.

لعلَّ دُعَاءَ أُمِّي هو من يسرَّ الأسباب لأتعرّف إلى د. أحمد هلال

ليأخذ بيدي وَيُعَلِّمُنِي وَيَدُلُّنِي كَيْفَ أُبْنِي حَيَاةً جَدِيدَةً هُنَا.

الإشارة حمراء والطابور طويل، والمحلات تتنافس بعرض زينتها، هاجت مشاعر الشوق لرائحة الطعمية المصرية وخاصةً وأن هذا المحل الوحيد في هذه المنطقة، استسلمتُ لحنين الطعمية الساخنة، ركنتُ سيارتي على جانب الطريق، ودلفتُ للمحل لشراء بعضٍ منها.

مررتُ لحظاتٍ ليست بالطويلة، سمعتُ صريرًا حادًا لفرامل سيارة، لم أعر الموضوع اهتمامًا، فالشباب في هذه المنطقة يتباهون بقدرتهم على الاستعراض بسياراتهم، تعودت أذني هذه الأصوات، قلما تخلو ليلةٌ لا أسمعُ فيها صيحاتهم وهم يلهون في الساحة التي تقع أمام المنزل .

-شطيرتين من الفول والفلافل وبعضًا من المخلل لو سمحت؟

جلبة كبيرة في الخارج على غير العادة، فراودني الفضولُ في اكتشاف ما يحدث، رغم علاقة الشقاق بيني وبين الفضول، وتذكّرتُ كلام نسرين:

- "أنت لو الدنيا اتقلبت مش هتقوم من مكانك، إيه البرود ده!"

- مش برود يا نسرين، ولكن الرضا بالقضاء والقدر، لا داعي لأن أتدخل فيما لا يعنيني.

خرجتُ فوجدتُ كوكبةً من الناس في دائرتين مُنفصلتين؛ الأولى

بجوار المحل، والدائرة الثانية أبعد قليلاً.

خَطَرَ ببالي أنهم بعض الباعة الجائلين، يلتفُّ الناس حولهم كالعادة، كدتُ أعود إلى المحل، إلا أن صوت الصُراخ دَخَصَ الفكرة، فأسرعتُ، فرأيتُ عجوزًا مُتكوِّمًا على الأرض، شعرُهُ أبيض، ذو جسدٍ ضعيف، لحيته طويلاً مُخَضَّبَةً بالحناء، وقد زاغ بصرُهُ وتناثرت كروت شحن للموبايل بجانبه يستترزق منها.

تحسستُ أنفاسه، صدره بالكاد يتحركُ، كدمة كبيرة في رأسه، النبضُ يظهر على استحياء، الناس مُلتفتةٌ حوله دون فائدة.

-إسعاف .. أريد إسعافًا بسرعة .. الرجل يموت ..

-أفسحوا الطريق ..

هَمَّ البعض أن يَتَّحُوهُ إلى الرصيف.

- إياكم فلبما به كَسَّرُ يُوْدِي إلى موته- لا قدر الله - بل تحلقوا حوله حتى تأتي الإسعاف، ركضتُ بسرعةٍ في اتجاه الدائرة الثانية، المصاب شخص آخر قويُّ البنيةٍ مُسَجَّى على الأرض، التفتَّ الناس حوله وقد رسم الدم بُحيرةً مُتخثرةً بجوار رأسه، وخالط اللون الأحمر الأبيض، كأنها لوحة تشكيلية بيد كارافاجيو⁽¹⁾ يتصارع فيها الموتُ والحياة

أَيُّ إهمالٍ هذا الذي يجعلهم ضحايا لرغبات شابٍ يستعرضُ

1- من أشهر الفنانين التشكيليين في عصر النهضة.

قُدْرَاتِهِ بِالسِّيَارَةِ دُونَ مِرَاعَاةٍ لِحَقِّهِمْ فِي الْحَيَاةِ؟!

أَيُّ ذَنْبٍ جَعَلَ وَلَدًا لَمْ يَشُبَّ عَنِ الطُّوْقِ يَقْضِي عَلَى آمَالِ أُسْرَةٍ،
وَيَقْضِي عَلَى رَاعِيهَا؟!

بِأَيِّ حَقٍّ يَسْلُبُ مِنْهُمْ حَقَّ الْحَيَاةِ؟!

مَا ذَنْبُهُمْ

مَا جَرِيْمَتُهُمْ؟!

أَكُلُ جَرِيْمَتُهُمْ أَنَّهُمْ يَحَاوِلُونَ أَنْ يَعْشُوا حَيَاةً كَرِيْمَةً؟!

تَوَافَدَ الْبَعْضُ فِي مَحَاوَلَةٍ لَتَهْدِئَتِي وَالْإِعْزَازَ بِأَنَّ ذَلِكَ - قَدَّرَ اللَّهُ -
عَبَّرْتُ الشَّارِعَ إِلَى الْجِهَةِ الْآخَرَى لِأَتَّصِلَ بِنَسْرِيْنَ، كُنْتُ بِحَاجَةٍ
لِمَنْ يَسْمَعُ

صُورَاحِي

شِكْوَايِ

لَمْ أَتَخِيلُ لِحِظَةً أَنْ حَيَاةَ الْإِنْسَانِ رَخِيصَةٌ إِلَى هَذِهِ الدَّرَجَةِ!

هَذَا الشَّيْخُ يَمْتَلُ قِصَّةَ كِفَاحٍ، قَدْ تَرَكَ بِلَدِّهِ سِوَاءَ سَبَبِ الْحُرُوبِ أَوْ
ضَيْقِ ذَاتِ الْيَدِ وَذَهَبَ إِلَى آخِرِ الدُّنْيَا لِيَكْفَلَ أَوْلَادَهُ وَزَوْجَتَهُ وَأَحْفَادَهُ
بِقُوْتِ حِلَالٍ لِيَكُونَ مَصِيْرُهُ مُعْلَقًا بِرِعْوَنَةِ شَابٍّ يُوْدِي بِحَيَاتِهِ.

- مَا بَكَ يَا شَهْدِي؟



- قتلوه يا نسرين ..

قتلوه بلا ذنبٍ

كل ذنبه أنه يبيع كروناً للشحن في الشارع.

كل ذنبه أن شاباً أرعن لا يعلم قيمة الحياة استلبها منه

قتلوه يا نسرين!

تكرَّرَ في أذني صوتُ صريرِ الفرامل مرَّةً أخرى، ولكن هذه المرة
أشدَّ، ليستقطُّ الهاتفُ

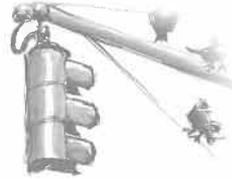
أسمع نسرين تتادي:

شهدي ..

شهدي

رُدَّ عليَّ ..

رُدَّ عليَّ يا شهدي!





Chicé





النداء الأخير



”كرباج ورا يا اسطى” كانت تتعقبه تلك الصيحات وهو يختلس الفوز بامتياز عجلات الحنطور ليحطى بتوصيلة مجانية من سوق التلاتين إلى منتصف الطريق إلى البيت، لا يفضحه إلا صيحات الأولاد الحاقدين عليه بتحفيز السائق بإرسال لسعة من الكرباج إليه، وهو المختبئ في ظهر الحنطور...



ترجّل فايز من سيارته الفارهة بعد أن أوصى سائقه بالتوجه مباشرة إلى منزله ليقضى حوائج الأسرة، على أن ينتظر منه أو من سكرتيره اتصالاً يُحدّد له موعد عودته إلى المطار ليقلّه إلى العمل.

في المطار كلُّ شخصٍ وله عالمه الخاصّ، الذي تنظمه دقائق الساعة بانتظام، خلية نحل تعمل أربعاً وعشرين ساعة دون توقّف بابتسامة مَرِحَةٍ تحتوي أيُّ محاولةٍ للخروج عن سَمَتِ المكان بصوتٍ مرتفعٍ أو مللٍ من تأخّر أصاب رحلته.

-أهلاً وسهلاً فايز بيه، كعادتك دائماً مبكر في مواعيدك.

أوماً فايز إلى الرجل بابتسامة وأتبع ذلك: المواعيد هي جزء من ثقافة الشخص وتربيته.

-شنطة واحدة يا باشا ..

توصل بألف سلامة، ممكن حضرتك تستريح في قاعة رجال الأعمال، وسوف ينادون عليك لركوب الطائرة..

توجّه فايز إلى قاعة رجال الأعمال، جلس بهدوءٍ على كرسيٍّ معتدل الظهر، انسكّت يده إلى حقيبته الصغيرة ليخرج جهاز تابلت أسنده على كفه، وأخذ يتصفح بريده الإلكتروني، كل تصرفاته كانت ميكانيكية مُرتّب لها، يسودها الوقار والأناة، ”مليونان وأربعمائة وخمسون ألفاً، ستمائة وثلاثون ألفاً، مائتا ألف وثمانى

مائة“ أرقام متوالية تصطفُ في ذهنه كمصفوفة كشف حسابٍ بنكيٍّ تتراعى أمامه على شاشة التابلت في عملياتٍ إمَّا يعتمدُها أو يُوقِفُها أو يُلغِيها، أخرجَ من حقيبته ورقةً صغيرةً وقلمًا، وأخذ يسطر ملاحظاتٍ على الأرقام بخطٍ صغير .

-راح في حوارٍ خاطفٍ مع نفسه ..

السفرُ في هذه الفترة غيرُ مناسبٍ ولكن ”الإنجليز عايزيني أسافر أوقع العقد، والأمر لن يستغرق أكثر من يومين أو ثلاثاً بالكثير وأعود“.

ثلاثة أيام في عُرْفِ العمل قليلة وفي عُرْفِهِ شخصياً دهرٌ طويلٌ، كان مُتضرراً من السفر إلا أنّ الشركة الإنجليزية لم تدع له فرصة للرفض أو التأجيل هذه المرة، فحسبت الأمر بإيميلٍ حادٍ اللهجة: ”إن أردتَ رُخصة الفرانشايز⁽¹⁾ فعليك بالحضور لتوقيع العقد اليوم قبل غداً، انتهى“، ورغم مشاغله التي لا تنتهي وافتقاره لبديلٍ يتكئ عليه، اضطرَّ إلى رحلة عملٍ سريعة ثلاثة أيام -على الأكثر- لإنهاء التعاقد، خاصة وأنه سيفتح عليه باب رزقٍ كبير، فسيمنحه قُدرة المنافسة على المناقصات الحكومية التي تشترط أن تكون الشركة عالمية أو ذات تحالفٍ عالمي.

١- كلمة فرنسية الأصل، وتعني باللغة العربية (الامتياز التجاري) توصف الحقوق والامتيازات الممنوحة لصاح شركة محلية من شركة عالمية حيث تمثلها في السوق المحلي بنفس العلامة التجارية والممارسات السوقية .

تأمّل ساعتَه، وعيناه تتأوابان النَّظر ما بين متابعة رسائل الواتس
آب والإيميلات في توجيهات مباشرة لموظفيه.

اثنتا عشرة سنة من الكفاح المستمر ليبنى اسمًا لشركته من محلٍ
صغيرٍ لبيع قطع غيار الماكينات إلى شركةٍ كبيرةٍ يتجاوز عدد
موظفيها مائتي موظف، عمِلَ فيها في كل المواقع: عامل تركيبات،
محاسبًا، أمين مخزن، مُشرفًا على العمال، لم يترك وظيفة إلا
تعلّمها واشتغلها بيديه.

”لا يحكُّ جلدكٍ مثلُ ظُفركِ“، فلا أحد يشعُر بقيمة المال إلا
صاحبه، ولا أحد يهتم لنجاحك كما أنت، لذلك حرصتُ على
أن أُمسك مفاتيح العمل بين أناملي، فمجال الأعمال هو مجال
الفرص. والذي لا يجيّد قراءة الفرصة سيظلُّ دومًا مُسجّي بين
الحُفَر لا يرى لون السماء .

-النداء الأخير.... إلى طائرة الإمارات المتجهة إلى دبي، الرجاء
من الركاب التوجّه إلى بوابة رقم ٣٦ لركوب الطائرة.

قطعَ النداء حبل أفكاره، وأخذَ يُلملمُ أغراضه استعدادًا لركوب
الطائرة. مع وقْع خطوات قدمي في الممر المُوصل للطائرة، كنتُ
مُنشغلًا بالصفقة، وإن تهافتت عليّ أشباح من الماضي من نوافذ
الممر: منظري وأنا أجلسُ على أبواب المساجد بصندوق أجمع
فيه شيئًا من الإكسسوارات، انادي عليها علّ أحدًا يشتري مني،

إما بوازعِ الرَّأفةِ أو بُغيةِ الصَّدقةِ، تهافت عليَّ صورتِي وأخوتي
نلتفُّ حولِ الطَّبليَّةِ الخشبيَّةِ المستديرةِ، تَخْتَلِفُ أيدينا على
صحنٍ به بعضُ أقراصِ الطعميةِ، نَقُتِّسُها فيما بينا حتى لا تَقْبَلِ
القسمةَ بعد.

ابْتَسَمَتِ المضيفَةُ ابْتِسامةً رَحبةً على بابِ الطائِرةِ، وَأَخَذَتِ كعبِ
التذكِرةِ لتحدِثني بِإنجِليزيةٍ تشوبها لَكِنَةٌ غربيَّةٌ ... رجالُ الأعمالِ
من هُنا سيدي، كرسيِّكَ الثاني على اليمين .

”كرباج ورا يا اسطى“ كانت تتعقبه تلك الصيحات وهو يختلس
الفوز بامتطاء عجلات الحنطور⁽¹⁾ ليحظى بتوصيلة مجانية من
سوق الثلاثين إلى منتصف الطريق إلى البيت، لا يفضحه إلا
صيحات الأولاد الحاقدين عليه بتحفيظ السائق بإرسال لسعة من
الكرباج إليه، وهو المختبئ في ظهر الحنطور...

ابتسم فايز ونفض عنه الذكريات، تَلَفَّتْ لحظاتٍ يبحث عن مكان
يضع فيه جاكِتِ البَدلةِ، ولم يطل تَلَفُّته حتى قَصَدته المُضيفَةُ
بابتِسامةٍ ودودةٍ، طالبةً بِإنجِليزيتها ذات اللكنة المميزة، أن
تساعده في أخذ الجاكِتِ وتُريخيه من عِناء التَلَفُّتِ، سلمها
الجاكِتِ، و ما لبث أن أَخْرَجَ التابِلتِ مرَّةً أُخرى وتَبَّته على مسند
الكرسي لتضئ شاشته بمؤشرات سوق المال من جديد.

١-عربة خشبية يجرها حصان أو عدة أحصنة تعتبر وسيلة نقل خفيفة، بسيطة، تنسج لشخصين كانت
منتشرة في العصور الملكية .

-السادة الركاب: نسعدُ باختياركم طيران الإمارات، ستُقلع الرحلة من مطار القاهرة الدولي إلى مطار دبي الدولي، مدة الرحلة ساعتين ونصف، سنحلق على ارتفاع اثنين وثلاثون ألف قدم...

تقدّمت المضيفة إليه بفوطيّة بيضاءٍ مُشبعةٍ بالبُخار الساخن ليغسلَ بها وجهه من عناء الانتظار، مسح فايز وجهه وأعاد لها الفوطيّة، فالتقطتها بابتسامةٍ دافئةٍ مُتمتةٍ

- نتمنى لك رحلة ممتعة.

أخرج فايز الورقة الصغيرة، وأخذ يكتب ملاحظاته من جديد، ويرسل رسائل توجيهية إلى موظفيه، قطع انشغاله صوت المضيفة من جديد وهي تحمّل صينية مذهباً فاخرة، عليها القهوة العربية، وحبّات من التمر الفاخر المحشو باللوز مغطى بحبّات السُمسّم قاتلة بابتسامة ودودة:

ما رأيك بشئ من القهوة مع التمر ..

التقمّت حبات من التمر وكوب القهوة، شاكراً لها اهتمامها، فردت بنفس اللكنة المميزة :

-أتمنى أن تنال القهوة والتمر إعجابك.

نوعية الخدمة أساس النجاح في أي عملٍ مباشرٍ مع الجمهور، وشركات الطيران تحرص على استقطاب الكفاءات وتدريبهم



ليحققوا بذلك مستوىً مميزاً من الخدمة؛ لتتكامل خدماتها من الرحابة إلى الفخامة إلى دفء الاستقبال لتشعر أنك في بيتك، لذا.. هذا أحد الأسباب الرئيسية التي أحتكم إليها في توجية السكرتارية في حجوزات الطيران في أي رحلة أقوم بها.

-الصحف ...

هل تُفضل الصَّحَفَ العالمية أمَّ العربية؟

التفتَ إليها دون أن ينظرَ ليقنتيَّ أولَ جريدةٍ تقابلُ يده على المنضدةِ ثم وضعها إلى جوارهِ، تتحنَّت المُضيفة في مُحاولةٍ للفتِّ انتباهه

-هل ترغبُ في نوعيةٍ معينةٍ من الصحف ؟

وكأنما أدركَ فايز قلة ذوقه فالتفت لها:

-نعم .. هل لديكم الهافنجتون بوست؟

ترددت المضيفة قليلاً لتحسم أمرها...

-ثوانٍ سأخبرك ..

تركت أمامه طاولة الصحف لترجع، وقد أحضرت معها الجريدة، أخذتها منها مُمتناً لفعالها بكلماتٍ مُقتضبةٍ.

مُكتظة الصحفُ بالأخبارِ الباهتة، السياسة تحلُّ دور البطولة بينما تظهر أخبار الاقتصاد على استحياء، تصفحت الجرائد



منتقلاً من واحدة لأخرى، دون أن أجد إلا أخبارًا قليلة تُحَفِّزُ
اهتمامي لقراءة تفاصيلها.

ناظرت هاتفي الجوال، وجدتُ أيقونة الرسائل تومضُ، فتحتُها
لأجد رسالة من شيرين:

” أنا والبعد أئدُّ الأعداء، فإن قضى أن تذهب وحدك، فلا تكن له
عوناً عليّ، وحشتي فقط لا تكفي “

جميلةٌ أنتِ يا شيرين بكل ما فيكِ .. برقتكِ، وخفّة دَمِكِ، وأصالتكِ
ورُقي حُلقِكِ، رغم أن زواجنا كان تقليدياً إلا أنه كان أكبر نقلة في
حياتي، نقلني إلى مرحلة الاستقرار والتخطيط والفضل بعد الله
فيما حققتُ إلى حكمتكِ في إدارة دَفّة الحياة.

تألّقت عيناهُ وهو يردُّ على شيرين:

” وعمر واحد معك لا يكفي .. أحبك “

رجل الأعمال الجيد هو الذي يُجيدُ قراءة الإعلام، يُحلّله، يقرأ
ما وراء الخبر، يستطلع بأنفه المخابراتي ما سيكون؛ ما توجّهات
الحكومة! وتنبؤات العالم في مجاله ؟

ما هي القرارات التي تؤثر على مجال عمله وصناعته؟ يجتهد في
استغلال الفرص وحماية مكتسباته.

”تحرك ولا تكن إمعنة يحركك العالم“

نهضت مستر شكري من على مكتبه، وأنا أتابعه بإمعانٍ، كنتُ ناقماً عليه من أسلوبه القاسي، فيكفي أنني كنتُ أعملُ لديه كل شيء:

كنتُ الساعي والسكرتير والسائق وعامل النظافة،

كنتُ ”أنا الشركة“، يبدأ عملي من الساعة السابعة صباحاً، وينتهي .. لا أعلم متى ينتهي بالضبط!

فأنا أعمل حتى يقنع هو بأني لبيتُ كل احتياجاته. كنتُ أنا من أغلق باب المكتب في نهاية اليوم ما بين الساعة العاشرة والحادية عشر، وعادة ما كان يكلفني بأعمالٍ شخصية بعد المكتب، كأن أحضر أغراضاً للمنزل أو لزوجته مدام وفاء ..

كل ذلك براتبٍ شهريٍّ لا يتجاوز ستون جنيهاً فقط، كان مبلغاً لا يعني شيئاً منذ اثنتي عشر سنة؛ لكنني تعلمتُ الكثير. لا أنكر ذلك، علمني مستر شكري كيف أضع البذرة الأولى لرجل أعمال صغير، قسوته صقلت في ذلك الإحساس الموجه نحو المال والتجارة.

ارتكنتُ برأسي على مسند كرسي الطائرة الوثير، حلقت عينا في سقف الطائرة وسرحتُ طويلاً .. حتى جاء صوتُ كالنغم، يقترب من أذني هامساً:

-هل تسمح لي بإحضار وسادة لتضعها تحت رأسك؟

أهو نفس الصوت الذي كنتُ أسمعه من بداية الرحلة؟

نعم .. نفس اللكنة الانجليزية الغريبة، إلتفتُ إليها وأخذتُ أتأملُها
عن قُربٍ زِيٍّ المضيفاتِ يَزِيدُها أناقةً وجمالاً،

لأول مرةٍ تتكلمُ العينان، تتحدَّثان.. تتهامسان، لم أشعُر بهذا
الإحساسِ مِنْ قَبْلِ .. ولكي أكون صادقاً، شعرتُ به أيام الجامعة
مع جوانا، كان قلبي يدُقُّ كلما رآها، وتهيم العين لرؤيتها، ويعشقُ
الأنفِ عِطْرَها ومُحيّاها، انتابتني ضحكة ساخرة ”كانت أياماً
يا فايز“ .. اختفت ملامح الابتسامة، واكتسب وجهي جديته من
جديد ..

لأول مرةٍ أنتبه إلى صوتها الجميل، نعم صوتها حالِمٌ خاصة بتلك
اللكنة الغريبة، فليست إنجليزية ولا أمريكية، هي مزيجٌ غريبٌ
لم أعهدُه من قَبْلِ .. لكنه مُثيرٌ مُحبَّبٌ للنفس، تُحب أن تسمعها
تتحدَّث،

-وسادة؟

-نعم من فضلك ..

إلتفتُ إليها وهي تلتفت عائدة إلى كُرسيها .. قوامها رائعٌ، لطالما
لفت انتباهي طول المرأة، فهو سرٌّ من أسرار جمالها خاصة إذا
تزاوَجَ مع كعبٍ عالٍ وعينين واسعتين، زِيُّها الرسمي الضيق يبدو
كأنما فستان سهرة...

تلك البدلة البيج مع الخطوط الحمراء تُخفي أكثر مما تُظهرُ،

ابتسامتها أخذة تجمع بين سحر الشرق وعنفوان الغرب،

ياالله...هذا التناسق الساحر بين بشرتها وزيبها يبدو كلوحة تشكيلية تأبي إلا إن ترواد خيالك ، صرفت صورتها عني بمعاودتي لقراءة الصحف من جديد، الأخبار مُملَّة، مُتشابهة، السوق تقفز وتهبط.

- سيدي: هل تُفضِّل البيكاتا بالمشروم⁽¹⁾ أو غراتان⁽²⁾؟

كان لرنين لهجتها نَعَمٌ، فليست إنجليزيةً صرفة، فيها صيغة فرنسية أو إسبانية .. لا أدري؟ لكن جرسها ممتعٌ لأنَّ تستزيد من كلامها، فأحببتُ أن أستمع بحديثها أكثر..

-ألا يوجد لديكم إلا طعام فرنسي وإيطالي فقط؟

بالعكس سيدي ، هناك عدة وجباتٍ من مطاعمٍ مُختلفةٍ، هل تُحب أن تجربَ المطعم الصيني أم الهندي؟

- قاطعُتها بالفرنسية: ألا يوجد لديكم المطعم المصري؟

فتوردت وجنتاها ، وارتسمت على شفيتها ابتسامةً حَجَلَة وهي تقول:

١- بيكاتا (Piccata) هو طبق إيطالي تقليدي يمكن أن يحضَّر من الدجاج كما يمكن أن يحضَّر من اللحم. تحتوي وصفة البيكاتا على لحم الستيك، الفطر، البصل، الثوم، لبننة، الزبدة، صلصة الصويا، زيت الزيتون، فلفل وملح .

٢- غراتان طبق فرنسي يتكون من البطاطس والحليب

-لا بد أنك مصري،

-نعم

-للأسف لا يوجد لدينا، لكني سأبلغهم في الإدارة بضرورة إضافة الطعام المصري إلى قائمة الطعام.

لم أتمالك نفسي وأنا أسألها:

- هل أنتِ فرنسية الأصل؟

غمرتني بنظرة شائقة وقد اكتسى وجهها بجمرة الخجل، وقد جعلت غمزاتها وجهها كلوحة فنية مليئة بمعاني الفرح والسرور؛ ذهبت .. تأملت خطواتها وثوبها الرسمي الذي يكشف عن استدارتها الساحرة، لخطواتها الجادة غنخ يظهر وإن حاولت إخفاءه وستره بالجدية والمهنية، وحصلة من شعرها سارحة كخيل جامح ...

عادت بعد لحظات تحمل صينية، يسبقها عطرها كالرذاذ الذي يسبق المطر... يغمرنى بمئات من الأسئلة، وضعت صينية الطعام على الطاولة، عبق عطرها يتسلل داخلي كأنما يصفد قلبي بسلسلة منتهاها هي، التقت عيوننا من جديد، شعرت أنها اختطفنتني من المكان والزمان، وكيف أقاوم تلك العينان الواسعتان ذواتا الحور الخلاب، نظرتها كشرارة توقد اللهب...



لأ أدري ما بي ... قلبي يموج بمشاعر مضطربة، نوع من المشاعر لا
تستطيع تفسيره، شيء ما يجذبني لأتعرّف إليها أكثر، وضعت الطعام
بدلالٍ وانتصبت قائمُها، لأول مرةٍ إلى تناسق قوامها، سبحان من
خلقك فسواك، مع كل خطوة كانت تبتعد ، كان قلبي اليها يحفد،
يقترّب،

و ذهبّت هذه المرة كما سبق...

تأخرت قليلاً - أخذت أرواد نفسي أن أضغط على جهاز استدعاء
المضيئة سأفعل أن تأخرت - وبالفعل تأخرت .. ولكني لم أفعل !
آثرت أن أغلب هذا الاحساس الطفولي، وجهت ناصيتي تجاه
النافذة، وأغمضت عيني، حاولت التفكير في أيّ شيءٍ آخر...

دقات قلبي تختلج مع دقات كعبها العالي، مرّت بجواري جامدة
الملاح إلا من ابتسامة ألفتها إليّ خاطفةً، تلقفتها بوقارٍ، وقد
قررتُ صرّفَ هذه المشاعر الصّيبانية:

فتحت الكمبيوتر وأخذتُ أراجُع الإيميلات، وكعادتي اندمجتُ في
الأرقام، فغافلني رنين صوتها هامسةً ..

“finissez-vous votre lunch”^(١)

رددتُ.. عليها بتلقائيةٍ! Oui merci^(٢)

١- هل إنتهيت من تناول غداءك ؟

٢- نعم ، شكرا لك



لقد سألتني هذه المرة باللغة الفرنسية؛

انتابنتي ابتسامه جذلة ... ذكية هذه المرأة، عرفت كيف تُثير
انتباهي من جديد وأجابت عن سؤالي بطريقة غير مباشرة بأن
أصولها فرنسية....

ولكن لحظة ملامحها لا تبدو كذلك!؟

هاتان العينان الواسعتان السوداوان المكتحلتان بذلك الكحل
الأزرق الوهاج وخصلة الشعر الأسود اللامع، بها سمّت عربي
واضح؟

مممم .. أثبتت نفسي عن التفكير، مُسترجعًا ذكرياتي مع شبرين
ونحن نتشارك الحياة، صخبها وسكينتها، أحسستُ بسخف ذلك
الشعور وكيف أجزؤ أن التفت إلى غيرها ..

الرجاء من السادة إعادة المقاعد إلى وضعها الطبيعي، وإغلاق
موائد الطعام، وربط الأحزمة استعداد للهبوط ..

وضعتُ جهاز الكمبيوتر في الحقيبة، أعدتُ الكرسي إلى وضعه
الطبيعي، ضبطتُ أغراضي استعدادًا لقرب الهبوط .. لم يطل
الوقت حتى هلت كالهلال في سماء صافية تتقلّب بين الرُّكاب
للأطمئنان أن المقاعد في مواضعها، وأن الأحزمة قد أُحْكِمَ
ربطها، ما إن اقتربت مني حتى أعادت علي التنبيهات

الرجاء إعادة الكرسي إلى موضعه الطبيعي، والتأكد من ربط
حزام الأمان ...

ثم أقلت من بين أناملها ورقة صغيرة على الكرسي، وغادرت بكل
بساطة دونما أن يظهر عليها أي شيء.

فتحتُ الورقة، وجدتُ عليها رقم هاتف، وبجوارها اسم صافي
باللغة الإنجليزية، أو مأت برأسي، وأنا مستمتع بتلك الجرأة التي
تزيدها فتنةً وسحرًا .. وأيقنتُ هذه المرة أن هناك شيئًا يربطني
بتلك المرأة، فليس من الطبيعي في كل مرة أن أنصرف عنها، أن
تعود بشكل لا أتوقعه لتجذبني إليها أكثر وأكثر...

وقررتُ أن يكون أول عملٍ أقوم به عند وصولي إلى دبي هو أن
أحدث صافي.

نزلتُ من الطائرة، ونظراتنا يُشيع بعضُها بعضاً، وابتسامة خفية
نزجها كرسائل الحمام الزاجل بأن هناك موعدًا بيننا لن نخلفه،
كانت ملامحها جامدة لا يظهر عليها شيء، نفس الابتسامة
الروتينية الرسمية التي تُودعُ بها كل الركاب وأنا منهم

بينما كنتُ أمني نفسي بوداع مختلف ...

ركبتُ السيارة، وانهالت عليّ الاتصالات والمواعيد

متى ستأتي؟ هل العقود جاهزة؟ سينتظرك جورج في الفندق
ليوصلك إلى مقر الشركة ..

اجتماعات ونقاشات وخلافات، انتهيتُ إلى الفندقِ وقد نالني النَّصْبُ. أخذتُ حمامًا دافئًا ولبست بيجامة النوم، وأسبلتُ جفوفي مُستعدًّا لنومٍ طويلٍ أرتاح فيه من عناء السفر والاجتماعات، لكن شيئًا ما يقضُّ مضجعي،

يُراوِدُ النومَ عيني، التحفت الوسادة فوق رأسي مُسبلاً، تزاхمت عليّ الخيالات ما أجمل اسمها، أسم على مسمى كأنه حورية من الجنبه هاهي تبسم وما أن امعن النظر في عيناها حتى تكسو الحمره خديها ...

نهضت من فراشي والشغف يحدوني .. لأن أحدثها، أخذتُ أبحثُ في أوراقِي عن تلك الورقة تلك التعويذة التي تحتوى بضعة أرقام هي الخط الذي يصل بيننا ..

أخذت أصابعي تتسارع لتطلب الرِّقم، لم يهملني الشَّغْفُ فُرصةً للتفكير، يسوقني سوقًا للاتصال بها،

أووف، الساعة الآن الثانية بعد منتصف الليل...

أغلقت الاتصال بسرعة، وانسحبتُ داخل الغطاء لاعناً ذلك الحُمَقَ الذي اعتراني في هذه السَّن...

أتكون مُراهقةً متأخرة! ماذا عن شيرين والأولاد!

أترانى نسيتها وهي وقفت جوارِي، ولها الفضل فيما أنا فيه الآن لم أكن لأصبح رجل أعمال مرموق دون تضحياتها المتصلة،

دون تديبرها ودعمها المتواصل، كل ذلك تبخر في الهواء أم فتنه صافي ... أف لشيطان النفس عندما يتمكن منّا!

فايز .. اصرف نفسك عن ذلك، فلا أنت بالمراهق ولا بصغير السنّ والمكانة، استقرار أُسرتك وحياتك أشدُّ أهميةً، فلنعدُّ لرُشدك، ولتصرّف تلك الخواطر عن ذهنك، فما حدث ما هو إلا نزوة وانتهت.

كان ضميري يُخاطبُ عقلايتي .. ولا عَرَوُ أن أصابَ كلامه قناعتي، وضعتُ الهاتف بجواري، وأسدتُ الغِطاءَ عليّ وهممتُ بالنوم، وفجأة تلالأت العُرفة بين صُبحٍ وليلٍ...

تأملت ساعة الهاتف قبل أن اضع الهاتف على إذني متملماً، الرقم غريب لا أعرفه من يتجرأ ويتصل بي في هذا الوقت المتأخر إنها الرابعة صباحاً. وتناولت الهاتف في ترقبٍ وحذرٍ

- يبدو أني أيقظتُك من نومك؟

- رددت بضجر .. من معي؟

- هل استطعت أن تتسى صوتي بتلك السرعة؟

- ممم .. أنت .. أنت صافي؟ كيف لي أن أنسى تلك اللكنة الإنجليزية المشوبة بفرنسيةٍ فوّاحة؟

خاطبتُها بالفرنسية .. فرنسيّتك تضيف لك أنوثةً أكبر.

-ولهجتك المصرية تبهرني؟

قهقهتُ بصوتٍ عالٍ قائلاً:

-هذه دُعابة في غير مكانها ..

-فأجابت بالعربية: كيف؟

-ماذا! أنتِ تتحدثين العربية؟ أنت من؟

تعاقَبَ الحوار بيننا حتى قرَّرنا أن نتقابل دون إبطاء، فلم نمهل أنفسنا إلا سُويعاتٍ قليلةً عتقنا فيها الشوق في صدرينا؛

تقابلنا في مطعمٍ مُميَّزٍ، تبادلنا الحديث، كنا كطفلين تعلِّما الحديث للتو، ثرثارين نتحدثُ معاً ونصمتُ معاً، يفصل حديثنا مساحةً هاربةً من الزمن فيها تحدثت الأحداقُ وصمتَ الكلام، رأيت في صافي هدية الله إليّ، بعد سنواتٍ من الكدِّ والجهد والتعب، كانت نظراتها تُفجِّرُ البراكين الكامنة، وتُلهبُ القلبَ بمشاعرٍ لم أعشها منذ سنواتٍ عجافٍ،

كانت صورتها تُخاليني .. يطارِدُني صوتها، ابتسامتها، حوزُ عينيها، لم يطل الأمر حتى قررنا أن نلتقي غداً صباحاً في فندقي.

من الصعب إزاحة ملامحها عن خيالي، أمضيتُ ليلتي هانئاً بجَوْلانٍ خيالي في مَلاحةٍ "صافي" وظُرفها، كلما أشارتُ أو التفتتُ بعينيها الفياضتين بالأنوثة:

من أين أتت بتلك الالتفاتة الفاتحة! ومن أين لها تلك الليونة البادية
من نبرات صوتها ومن حركة أصابعها السَّكْرَى! ومن أين لها هذه
الفتنة الفوّاحة!

نمتُ، مُلامِسًا لها بخيالي، ولم أستطع النوم، كلمتُها منذ وصلت
إلى الصباح عشر مرات .. وأنا بين الشوق والجدل كان صوتها
حنونًا، هامِسًا، وضحكاتها عابثةً مجنونةً، كانت امرأة بها كل
شيءٍ: الجمال والجسد والثقافة والملاحة،

أنها امرأة من الجنة،

وراح خيالي يأخذني إلى حلمٍ بأنني دعوتُها إلى عُرفتي فأدفأت
حياتي كما أدفأت سريري، وتفتنت أن تجعلني رجلاً في عالمٍ آخرٍ
بفنونٍ فِرَاشِيَّةٍ ساحرةٍ، كأنني طفلاً يحبو بين يديها، كانت تلهبني
بنظراتها وحركاتها، وهبتني ليلة تاريخية أتاحت لي حدودها،
وجعلت نفسها في تاريخي ملكة لا يُنازعها أحدٌ،

شهيَّةٌ لا يُمَلُّ أكلُها، كل لحظة بطعمٍ جديدٍ، تركت آثارها على كل
أنحائي كأنها تُوقِّعُ صكَّ مِلْكِيَّةٍ بِاسْمِها، كنتُ مُشْتهاها في الذهبِ
والإيابِ، أو اااا من طقوسها التي تزواج بين الدلالِ والمجونِ،
علقتني بها...

وجدتُ نفسي مُنْجَذِبًا إليها دون هوادةٍ، ضممتُها إلى ذراعيِّ
وهمستُ في أذنها:

-لا أستطيعُ الحياة من دونك، هل ترضين بي زوجاً؟

تلاأت الفرحة في عينيها، وعمَّ الصمتُ .. لتسألني:

- أجادُ أنت ؟

فأجبتُ:

-لم أكن جاداً في حياتي كما أنا معكِ؛

قفزتُ من الفراش ترقصُ وتُغني وتصرخُ، وأخذت تحتضني،
وتقفزُ بي على السرير إلى أعلى .. أعلى .. أعلى ثم ارتمينا على
الفراش في جنةٍ فردوسيةٍ ليس فيها إلا أنا وهي.

وعلى الفور كلمتها فيما راودني .. وكان من نغم الفرحة في
صوتها .. ماجسد كل ماتخيلتهُ

لم أُر في ذلك جوراً على شيرين ولا على حقوقها، فقد أحلَّ اللهُ ليَّ
الزواج ”مُنَى وثلاث ورُباع“ ، ولا أظنُّ أن أحداً قادراً على مُنازعة
شيرين مكانتها، ولكن قلبي وقع في الأسرِ ولا حيلةَ لي ولا قوة،
قررتُ أن أرجئَ التفكير في ذلك إلى وقتٍ آخر.

ليس حفلاً كبيراً .. وإنما نسعد بأن نتشاركه معكم، نعم، نعم، بعد
نصف ساعةٍ من الآن؛

تجهزت صافي بستان سواريه صارخ الجمال، سماوي بلون
السحاب، ولبست بدلة تكسيده بيضاء مع ببيون سماوي، وجلسنا

في قاعة الفندق، وقد جلس المأذون على اليمين ومدير الفندق وبعض الموظفين على اليسار، وثلَّة من النُّزلاء الذين استجابوا للوحةٍ علَّقتها إدارة الفندقِ على المدخل بطلب الحضور ..

دقائق صغيرة لكنها كانت فاصلة في حياتي، نسيْتُ فيها تاريخي السابق، نسيْتُ شيرين وأولادي، نسيْتُ عُمراً من الكفاح، نسيْتُ تاريخاً صنعناه معاً، كانت فيه السُّنْدُ والعُزوة، نسيْتُ كل شيءٍ إلا صافي، وصافي فقط :

حملتُها بين ذراعي إلى جناحٍ ملكيٍّ، منحتني إدارةُ الفندق تخفيضاً خاصاً عليه.. وهناك تحوَّل الليلُ إلى نهارٍ .. رَقَصْنَا وشَرَبْنَا وغَنَيْنَا ولَعِبْنَا .. كان يوماً حافِلاً من أيام ألف ليلة وليلة.

كانت صافي الزمن والتاريخ، كل شيء بجوارها يتضاءل لتصبح البطولة لها، معها أشعرُ أنني في ملكوتٍ آخر، بهرني نَشَاطُهَا وانطلاقُهَا وشَغْفُهَا بالحياة، لا تريد أن تمرَّ لحظةً واحدةً مُرورَ الكِرامِ، ركضْنَا ولَعِبْنَا حتى نالنا النَّصْبُ والجهد، كان يوماً حافِلاً:

تسلَّت أشعةُ الشمسِ من خلفِ النافذةِ على استحياءٍ، تُرهبُها ستارةٌ ثقيلةٌ تمنعُ نفاذَ الضوءِ إلا من فجوةٍ نسينا سترها أمس، لتكونِ لوحةً رائعةً من الظلالِ، تتمازجُ بين دفاءِ الشمسِ وبرودةِ التكييف، تَلَفَّتْ حولي .. لم أجدَ فاتنتي، أخذتُ أنادي عليها ... صافي ... يا جميلتي .. زوجتي الحبيبة.

الأغلبُ أنها خرجت، يا للعجب! هذه الفتاة نشيطة بشكل غير عادي، يبدو أن فارق السنِّ لصالحها يا فايز، هههههه،

ابتسمتُ وأنا أشدُّبُ ذقني في مرآةِ الحمام، الفارق لا يتعدى خمس أو ست سنوات، لكنك ما زلت تتمتّع بجاذبيتك الرائعة. ما مُفاجأتها هذه المرة؟!

انتهيتُ من الحمام، ولبستُ ملابسِي وأنا أستطلع شيئاً قد يكشفُ سرَّ اختفائها المُبكر، تقطعني ابتسامة شائقة، عندما أتذكرها وهي ترقص فوق السرير بهذا الشورت الساخن ههههه - مجنونه فتاتي -

أها .. مُغَلَّفٌ بلونٍ احمرِيفوح بعطرها، أخذتُ أتسمِّمه ”ريتشي“ عطرُ الأنوثة الأخاذ، أااااه منك يا صافي!

أخذتُ المغلف، ورميتُ نفسي على كرسي هزاز، وقد أسلمتُ قلبي لحروفها، وكلي شَغَفٌ لاكتشاف مُفاجأتها القادمة، كتبتُ بالإنجليزية:



”حبيبي فايز ... كانت أيامًا ليس لها مثيل، أستطيع أن أجزم
أنني لم أشعرَ بسعادةٍ كما سعدتُ معك هذين اليومين، أعتذرُ عن
اضطراري للمُغادرةِ فلديَّ طائرةٌ ستُقلِّعُ إلى واشنطن في الصباح.
تركتُ لك ورقة الزواج لتبقى ذكرى بيننا...”

.. مع تحياتي وحُبِّي“

صافي







امنية حرون



ها هي الانفراجهُ قد حانتُ، فأضواءُ الشمسِ تلمعُ على قارعة الطريق في إشارة إلى الطريق العمومي الذي يحدُّ نهاية السوق، بضع خطوات وتخرج من السوق ومن هناك تأخذ أي وسيلة مواصلات تصل بها إلى منزلها، لكن لحظة اقترابها من نهاية السوق سمعت أصواتاً وصراخاً، واندفعت على إثرها أرتالٌ من البشر من باب أحد المحلات، وإحدى السيدات تُمسكُ بالأخرى..



”لا والله يا خويا معرفش.. اسأل أم سوسن على الناصية اللي جاية، أيوه.. اللي بتبيع الخضرة على أول السوق“...

رَدَّتْ ”أم توحه“ على السائل وهي تخطو أولى خطواتها داخل سوق السباعي، ذلك السوق الجامع، الذي يُعتبرُ مركزاً لبيع منتجات القرى المجاورة حيث يتوافدُ عليه الفلاحون من كل صوبٍ وحديبٍ، كل بيضاوته، فسوقُ السباعي ليس مجردَ سوقٍ

ولكنه عالمٌ آخر..!

هناك حيث يجتمعُ أكبرُ عددٍ من البائعين والمشتريين والمتفرّجين في كل يومٍ جمعةٍ، ويتوافدُ عليه الفلاحون مزودين بإنتاجاتهم المنزلية:

ما بين زُبدٍ وقشدةٍ ولبنٍ بقريٍّ وجاموسيٍّ.. هذا غير ”العيش“ البلديّ و”المرحح“^(١) والبيتاوي^(٢) وأنواع الجبن القديمة والقريش والبيض البلدي والفطير المشلتت.. والطيور بأنواعها ما بين بطٍ وإوزٍ وسمانٍ وحمّامٍ وكناكيتٍ، في خليطٍ متجانسٍ، رغم تنوعه، وزخمٍ يصنعُ تفاصيلاً صيحاتُ البائعين و”فصال“^(٣) المشترين.. يتخلله بعضُ السبابِ والشتائمِ في حالٍ لم يقتنع المشتري بالسعرِ، أو نَقَمَ البائعَ على مشتري أكثرَ عليه ”الفصال“ وتقليبِ البضاعةِ لانتقاءِ الأفضلِ منها.

١- نوع من أنواع الخبز البلدي المصري.

٢- نوع من أنواع الخبز البلدي المصري.

٣- لفظ يقصد به التفاوض مع البائع.

في وسط ذلك كانت أمٌ توحه تحملُ على رأسها مشننة^(١) فيها
”دكر بط“ وهي في حالة من النشوة والفرح بأن الزفر^(٢) أخيرا
سيدخل البيت، وتتمكن من عمل شوربة بمرقعة ”ترم عظم“
أبو توحه.

أخذت أم توحه تشق السوق عائدةً إلى منزلها حاملةً على رأسها
المشننة ودكر البط شامخاً برأسه كأنه يتباهى برؤية الجميع من
أعلى في فرصة لم تُتَح له من قبل، وبينما أم توحه تتأمل بنظراتها
المُتمنّية البضائع المنتشرة في السوق وهي تارة تُمني نفسها
بشراء غسالة ترحمها من طشت الغسيل على أمل أن يُفرجها الله
على ”أبو توحه“، وتارة تصبُ نغمتها على البضائع الأخرى في
محاولة لإرضاء نفسها بأن شراء تلك البضائع نوعٌ من أنواع البذخ
الذي لا يَرْضَى عنه أحدٌ

فما الغاية من مروحة بريموت كنترول إلا محاولات دائبة من
البائعين بالضحك على الناس لتحقيق أرباحٍ أكثر بتشجيعهم على
الشراء بدافع البذخ والبهرجة!

وفي غمرة نظراتها ما بين تمنٍّ ونقمةٍ باغتها شخصٌ يرتدي
”جلاية وطاقية“ استوقفها متسائلاً:

- إلا بكام الدكر ده؟

١- قصص من أحوال القصب.

٢- الطعام الذي يحتوي على لحم (طيور - ماشية)

توقفت أم توحة وأجابته :

سبعين جنيه وعلشان الحلفان اتين وسبعين .. فيه اثنين جنيه
لزوم الكُسب والدرّة ..

مصمص الرجلُ شفتيه ونظرَ إليها من أعلى إلى أسفل ثم إنطلقَ
لا يَلْوِي على شيءٍ دونَ أن ينطقَ ببنتِ شَفَةِ، عبّرتْ أم توحة عن
استنكارِها من الرجلِ برْفَعِ حاجِبِها بحركةٍ فجائيةٍ ثم ما لبثَ أن
استنكَرَ لوضعيهِ الطبيعيِّ مُطلقَةً صيحةً استنكارٍ ..

- ”ألا من إيه ده .. ربنا يشفي!“

أطلقت العنانَ لقدميها في طريقِ العودَةِ، ولم تَمُضِ دقائقٌ قليلةٌ
حتى سمعتْ صوتاً من الأعلى يُنادي:

- ”ياللي شايلة دكر البط، إنت يا ختي اللي معاكي دكر البط ..“

توقفتْ أم توحة وحاولتْ النظرَ إلى أعلى بزوايةٍ محدودةٍ لتجد
امرأةً تقفُ في بلكونةٍ علويةٍ ونصفُ جسمِها متدلٌّ فوقَ السُّورِ.

- ”صباحك نادي، إلا بكام الدكر ده يا ختي؟“

أم توحة: سبعين جنيه و اثنين جنيه لزوم الكُسب والدرّة.

وما إن همّتْ أم توحة إلى التحركِ

حتى استوقفتْها المرأةُ مرّةً ثانيةً:

- "يا ختي هو أنت متسرّبعة على إيه!"

- "والدكر ده بقا بلدي ولا مسكوفي؟"

فقال: مسكوفي.. ولا مؤاخذاة يا ختي لازم أمشي.

همّت المرأة أن تجذبها إلى مرّة أخرى ولكن سرعة هيمّة أمّ توحة في الحركة جعلتها تصيح:

- "ربنا يباركك يا ختي بس شكله غالي حبتين.."

"وبعدين انت متسرّبعة كده ليه.. أنت وراكي الوزارة يا خت!"

مصمّصت أمّ توحة شفيتها مسرعةً حُطاها إلى البيت، وما إنّ غادرت نطاق بلكونة المرأة حتى لمحت ابتسامه رجل عجوز يركب دراجةً بصندوق حديديّ حاملاً فوق رأسه قفصاً من الخوص يضع عليه بضعة أرغفة من الخبز، بيتسم لها من بعيد، تمتت أمّ توحة:

- "هو النهاردة ما له كده!"

وأشاحت بوجهها للناحية المقابلة، لم تمض سوى لحظات قليلة حتى إقترب الرجل منها وأوقف دراجته وقال مبتسماً :

- فينك يا أمّ توحة.. مختفية ليه؟

- "الدنيا تلاهي، وأنت رايح فين كده؟"



- ”طاع على الورشة كنت باجيب عيش للفطار، إلا بكام ذكر
البط ده؟“

- ”سبعين جنيه وعلشان الحلفان اتين وسبعين .. فيه اتين جنيه
لزوم الكُسب والدره!“

- ”عَلَيَّ يا أم توحة.. طيب بأمانة الله بكام؟“

- ”والله بسبعين جنيه وعلشان الحلفان فيه اتين جنيه.. لزوم
الكسب والدره.“

بدا الضيقُ على وجهِ الرجلِ والتفت إليها بحدة:

- بقولك بأمانة الله.. طيب وحياء سيدك المرزوقي بكام؟
قاطعته أم توحة قائلة:

- لا إلهَ إلا اللهُ! حلفتك بالله تقولي سيدي المرزوقي؟!

وكتاب اللهُ وكتاب اللهُ اللي مفيش أعلى منه ب بسبعين جنيه وإتتين
جنيه لزوم الكُسب والدره، وبعدين هو أنا هاكذب عليك ليه؟

روح يا شيخ فورت دمي!

ثم ضببطُ المشنة فوق رأسها وانطلقت وهي تُسبُّ وتلعن، مُنْبِئَةً
نفسها إنها استجابتُ ووقفتُ لهذا الرجلِ وهي تعرف مقدماً أن
هذا سيحدثُ.



واصلت سيرها وهي تتخيل كيف سيكون رد فعل "أبوتوحة" عندما يشاهد ذكر البط، وكيف سترسم ابتساماً جميلةً على وجهه بعد شهورٍ عجاف، لم يدخل البيت فيها ريحة الزفر

وكيف استطاعت أن تقتصد من نفقات البيت لتوفر ثمن الذكر، كانت تشعر بنشوة عارمة بأنها ست بيت من الدرجة الأولى، وأغلب ظنّها أنهم لو عملوا مسابقة في التدبير المنزلي على مستوى العالم ستكون الأولى بلا منازع.

"أصل الناس بتوع المسابقات دول بيتكلموا في هوا، ما عاشوش الحياة الصعبة ولا عرفوا قيمة القرش، أما الناس اللي اتمرمت فتعرف إن القرش ليه قيمة.. والقرش الأبيض ينفعك في يومك الأسود.."

وأمّ توحة صاحبة نظرية "الربع جنيه المخفي"؛

فعندما تريد أن تشتري أي شيء لابد أن تتقصد منه ربع جنيه وأن تتحايل لتدبير احتياجاتها بالمبلغ بعد "خنصرة"⁽¹⁾ الربع جنيه بإخفائه في مكان ما، وقد نجحت هذه الطريقة تماماً، في توفير اثنين وسبعين جنيهاً كاملة.

علت ابتساماً الثقة شفتي أمّ توحة حتى داهمها صوت سيدة تجلس على قارعة الطريق في السوق وأمامها طاسة ويجوارها قطع من الباذنجان والفلفل الرومي،

1- اقتصاص جزء من المبلغ.



- السلامُ عليكم..

-وعليكم السلام..

- جاية منين يا شابة؟

-كنت في السوق يا حاجة، أي خدمة؟

قطعَ كلامَ أمّ توحة وولدٌ صغيرٌ يتقدمُ للعجوز،

-الأسطى بيقولك: بنص جنيه باذنجان وشوية فلفل حار..

قبضت العجوزُ النقودَ من يدِ الطفلِ ووضعتها في كيس قماش أسود

يعلوه شريطٌ من المطاط بين قدميها ثم أشارت إلى الولد:

-شوية وتعال..

ثم التفتت إلى أم توحة وهي تسقط قطع الباذنجان في الزيت

وتتحدث إليها دون أن ترفع رأسها،

- بدمتك ودينك بكام دكر البط ده؟

التفت إليها أم توحة بشيء من بقايا الصبر..

- بدمتى ودينى.. بسبعين جنيه واثنين جنيه لزوم الكسب والدره..

التفت إليها المرأة العجوز بحدة وقالت: ده أنا زممتك يا شابة..





- من الآخر كده بكام؟ وبعدين ده مسكوفي ولا شرشابي؟⁽¹⁾

ردت أم توحة: مسكوفي يا حاجة وأنا شارياه كده!

أشاحت العجوزُ بوجهها تجاه الطاسة وهي تقول:

لا .. بس اتقلبت فيه يا شابة هو فيه دكر بط بالسعر ده!

أم توحة وقد نفذ صبرها:

- القسمة يا حاجة.. ولا مؤاخذة أنا ماشية!

أخذت أم توحة تتنفس الصعداء وهي تنفخ عناء النقاش مع العجوز
بتهدية كبيرة مُحدثة نفسها:

هي الكعكة في إيد اليتيم عجة ولا إيه!

وأخذت تُسرِع من خطواتها أكثر، وما إن بدأت تبتعد قليلاً عن
السيدة حتى لحقها ولدٌ صغيرٌ ينادي:

يا بتاعة البط، بابتاعة البط.. الحجة بتقولك تباعي؟

واخذت أم توحة تضرب كفاً بكف وهي تكلم نفسها:

شوفوا الست بتعمل إيه! يعني بتقطس السعر علشان تشتري هي
في الآخر..!

1- من أنواع البط.



وفجأة اختل توازنُ أم توحة فسقطت المشنة على الأرض وطار ذكر
البط بعد أن اصطدمت بولدٍ صغيرٍ يركض باندفاعٍ.

انخلع قلبُ أم توحة وهي ترى ذكر البط يرفرفُ بعيداً عن مشنتها،
وأخذت تركضُ وراءه في محاولةٍ منها لملاحقته، تفاعل معها
بعض رواد السوق، فقاموا بعمل دائرةٍ لمحاصرة ذكر البط، وهم
بعضُ الشبابِ الصغارِ بالهجومِ عليه..

والذكر يحاول الاختباءً بين كراكيبِ السوق المتناثرة، وتعالق
الصيحاتُ

”أهو حلق عليه..“

حوش ..

حوش ..

أيوه هناك ..

حتى قفز أحد الشباب وأمسك بإحدى قدميه ...“

كانت أم توحة تطالعُ تلك المحاولاتِ وقلبها ينتفضُ مع كلِّ حركةٍ
تهمُّ بإمساكِ الذكر، لم يكن مجرد زفر فحسب

كان أمنيةً حرون

لطالما راودت صاحبتهَا، وتأبى أن تخضع للإرادة، وكأنما تحوّل
الذكر في هذه اللحظة إلى مجموعةٍ من الأحلامِ المكبوتة تحت
باب الانتظارِ

أصبح ذكر البط في عينيّ أم توحة مسيرة حلم تخاطبُ بها
نفسها كل يوم، مسيرةً من الاجتهاد والتدبير لتحقيق جزءٍ صغيرٍ
من حلمها، ها هو حلمها يقفز من يدٍ إلى يدٍ في محاولاتٍ حثيثةٍ
للإمساك به، لم يكن قلبُ أم توحة فقط الذي ينتفض..

بل كانت هي بكل حواسها تنتفضُ مع تلك المحاولاتِ، والذكر يراوغُ
هذا ويخادعُ ذلك، حتى أن لذلك الصبي الصغير أن يمسكه بعد أن
ضاقت به السبلُ عن الفرارِ والمراوغةِ

ركضتُ أم توحة لتحتضنَ الذكر بشكل عشوائيٍّ وتتحسّسه لاكتشافِ
أيّ جروحٍ أصابته، ووضعتَه بسرعةٍ فوق المشنة، وقد قرّرتْ مغادرةَ
السوقِ على وجه السرعة.

وانطلقتْ تسابقُ الخطى لتخرجَ من هذا السوقِ الذي تسبّب لها
في الكثيرِ من الحنقِ والغضبِ مهدّداً إياها بضياغٍ أمنيّتها في
لمحةٍ عين.

ها هي الانفراجةُ قد حانتُ

فأضواءُ الشمسِ تلمعُ على قارعة الطريقِ في إشارةٍ إلى الطريقِ
العمومي الذي يحدُ نهايةَ السوقِ، بضع خطواتٍ وتخرج من السوقِ
و من هناك تأخذُ أي وسيلةٍ مواصلاتٍ تصل بها إلى منزلها

لكن لحظة اقترابها من نهاية السوق سمعت أصواتاً وصراخاً،
واندفعت على إثرها أرتالٌ من البشرِ من باب أحد المحلات،
وإحدى السيدات تُمسكُ بالأخرى..

- لا أنت اللي بدأت..

- يا لهوووووي، الحقوني يا ناس..

وانطلق الناس من كل حدب ينسلون، وفجأة اجتمع رواد السوق على هذه الكوكبة الصغيرة من النساء وقد أصبح صراخهم أعلى من "سرينة" الإسعاف التي تَشُقُّ الطريق، بعد أن سالت دماء أحدهم والصراخ يزيد..

- "حد معاه قطن.."

- "سبرتو يا جماعة"

حد اتصل بالإسعاف ولا لسه؟

يا ناس دمها هيتصفى..

وجدت أم توحة نفسها وسط المشاجرة، وأخذت تتلفت يمنة ويسرة محاولَةً الهروب أو الاختباء على أقل تقدير، فالجري "نصف الجدعنة" في هذه المواقف..

لكن الزحام لم يتح لها هذه الامنية.

فراحت تجتهد في الاختباء، هرباً من أن تُصيَّبَها إحدى المصائب، حتى وجدت نفسها في محل خردوات فحمدت الله

بعد مرور بعض الوقت والترقب، قررت أم توحة أن تخرج وتقتحم الخناقة بأي شكلٍ من الأشكال، فالبوادر أمامها تُظهر أن الموضوع سيطول ولا طاقة لها بالانتظارِ أكثر، بعد فترة من التردد قررت أم توحة الخروج سريعاً؛

فحزمت أمرها وسارت بخطى مترددة وهي تُمسكُ المشنة بإحدى يديها والأخرى تفتحُ لها طريقاً بين مشاهدي الخناقة.

ها هي تتجاوزُ الجموع، حتى وصلت إلى خارجِ السوق.

تنفست الصعداءِ

وأنزلت المشنة لتريح رأسها من ثقلها، في انتظارِ مرورِ سيارة، للوصولِ إلى البيت.

فجأة اكتشفت أن هناك شيئاً ما قد فقدته أثناء الخناقة.

”دكر البط“..!







وجه القمر



كل موقفٍ تتخذه يا صديقي تصنع به تاريخاً، حتى
سكونك وإمعانك في الصمت هو صناعة لتاريخٍ اخترت
فيه العزلة والسلبية وسطرت سطرًا من الإحجام
والانكماش على ذلك، لذلك أنت موكلٌ لما تفعله، ولا
تدعُ التاريخ يمرُّ دون أن تترك بصمتك عليه، ولا تُركنُ
للبصمات السلبية، بل اترك بصمةً تجعلُ الجميع
يتحدث عنها.



كل موقفٍ تتخذه يا صديقي تصنع به تاريخاً، حتى سكونك وإمعانك
في الصمتِ هو صناعة لتاريخٍ اخترتَ فيه العزلة والسلبية وسطرت
سطوراً من الإحجام والانكماش على ذلك

لذلك أنتَ موكلٌ لما تفعله، فلا تدعُ التاريخ يمرُّ دون أن تترك
بصمتك عليه، ولا تتركُ للبصمات السلبية
بل اترك بصمةً تجعلُ الجميع يتحدث عنها.

ما أن انتهى المحاضر من خطبته العصماء حتى صفق الجمهور
ووقف الجميع احتفاءً به، أغلقتُ التلفاز وكلمات الدكتور ترنُّ
في أذني ..

- هل مر عليك يوماً صنعتَ فيه التاريخ يا سامح ؟

بالتأكيد صنعت التاريخ كثيراً ..

وقفتُ في منتصفِ الغرفة وقد فردت ذراعِي على امتدادِهِم
وصحْتُ بصوتٍ مرتفعٍ:

كم مرة صنعتُ التاريخ يا سامح ..

حتى جاءني صوت زوجتي ..

- صنعته بصمتك وترددك خلينا ساكتين يا سامح بقا.

هكذا هي زوجتي دائماً ما تُثبِّطُ عزيمتي، لم يعد لي في هذا البيت
إلا ابنتي حبيبتي،

الْبِنْتُ دِفْءٌ وَحَنَانٌ وَدَلَالٌ وَتَسْرِيَةٌ، هَذَا مَا أَشْعُرُ بِهِ كُلِّ لِحْظَةٍ
وَابْنَتِي تَتَحَرَّكُ فِي الْمَنْزِلِ كَفَرَّاشَةٍ بَرِيَّةٍ تُشَاكِسُ كُلَّ شَيْءٍ، لَا تَرَكُنُ
إِلَى السُّكُونِ، تَعَانِدُ الصَّمْتَ بِالْمَشَاغِبَةِ، وَتَبِثُ الْحَيَاةَ فِي الْمَنْزِلِ
بِالْحِرَاكِ

تَتَقَاوَرُ عَلَى الْأَثَاثِ لِتَكْتَشِفَ كُلَّ شَيْءٍ بِصِبْغَتِهَا، ثُمَّ مَا تَلْبِثُ أَنْ تَلْمَحَ
أَنْ تَصْعَدَ عَلَى رِقْبَتِي لِتَقْرُسَنِي قَرَصَاتٍ مُتَتَالِيَةً، ثُمَّ تَعَكِّشُ شِعْرِي
مَا إِنْ أَزِيحُهَا حَتَّى تَتَسَلَّقَ ظَهْرِي مَنْتَوِيَةَ الْغَدْرِ

تَلَافِيْتُ سَقَطَتِهَا عَلَى الْأَرْضِ بِأَنْ حَمَلْتَهَا عَلَى الطَّوَالِغِ وَتَرَكْتَهَا
لِتَسْتَكِينِ .. وَلَكِنْ بِخُفَّةِ الْغُزْلَانِ هَيْبَطَتْ وَتَبِعْتَنِي وَهِيَ تَرَكُّضُ وَرَائِي

-بابا .. بابا ..

فالتفت إليها:

-نعم

كُلُّ أَصْدِقَائِي يَتَعْجَبُونَ مِنْ اسْمِي، وَيَسْأَلُونَ عَنِ مَعْنَاهِ، فَلَا أَعْلَمُ
بِمَاذَا أَرَدْتُ عَلَيْهِمْ، فَمَا مَعْنَى الْاسْمِ؟ وَلِمَاذَا هَذَا الْاسْمُ بِالذَّاتِ؟

احْتَضَنْتُ ابْنَتِي الْجَمِيلَةَ .. وَأَنَا أُدَاعِبُ شِعْرَهَا بِأَنَامِلِي، أَمَا عَنِ
مَعْنَى اسْمِكَ فَهُوَ وَجْهَ الْقَمَرِ بِاللُّغَةِ الْأَثْيُوبِيَّةِ

تَلَالًا وَجْهَ ابْنَتِي وَهِيَ تَقُولُ وَهَلْ لِلْقَمَرِ وَجْهٌ؟

إن لذلك قصةً طويلةً .. في هذه القصة يا حبيبتي صنعت أنا
التاريخ ثم خفضت صوتي قليلاً ...

-أنا وأمك،

رَدَّت ابنتي بعينين ملؤهما الشَّغْفُ والمُشَاكسَةُ:

-أي تاريخ؟

ألمَ تسمعي المحاضر منذ قليل وهو يقول:

لا تدع التاريخ يمرُّ دون بصمتك .. اسمك كان أحد البصمات التي
سأتركها تتحدث عني، ولها قصةٌ جميلة ...

-احكيها لي ...

-حسناً سأحكيها

بدأت القصة منذ عشر سنواتٍ هي عمرك الغُضُّ، في يومٍ من
الأيام التي اقترب فيها بزوغ نجمك على الدنيا، كانت الساعة
الحادية عشر ليلاً، وكنتُ بصحبة أمك نتجاذبُ السَمَر في بيت
جَدِّك، وما إن انتوينا الرجوع للمنزل حتى انهالت عليَّ النصائح
كأني مُقْبِلٌ على صعود جبل عرفات، فأخذ كل فردٍ من العائلة يدلي
بدلوه:

- ”خلي بالك منها يا سامح“.

- ”أوعى تهمل فيها ما تخليهاش تطلع السلم بالراحة عليها“.

- "أخدم نفسك بنفسك، البنت مش مستحمله، لو فيه أي حاجة اتصل علينا .. اليومين دول يومينها خليك واعى كده .."

- حاضر يا حماتي .. حاضر يا حماتي .. حاضر يا ليلي .. حاضر يا أحمد .. عينيا .. "إن شاء الله خير .. مش نمشي بقا؟!"

خرجتُ من باب الشقة تلاحقني زُفَّة من النصائح إلى الباب الرئيسي.

ما إن تجاوزت ناهد الشهر التاسع بيوم واحد ونحن نعيش حالة استنفار مترقبين صيحة وجع تُفسَّر بأنها اشتباهٌ في "طَلْق" فأجهزُ سيارةً لنقلها إلى المستشفى في حالة من الهرجلة واللهوجة فأجمع شتات نفسي، وأستبسلُ في إظهار شجاعتِي وحُسن تدييري حتى نصل إلى المستشفى ليقوم الدكتور بالفحوص اللازمة، ثم يلتفت إليّ وقد خُضَّب الخجل وجهه

- "إنت قلبك رهيف كده ليه؟! .. بس هانت خلاص اليومين الجايين إن شاء الله."

فألتفتُ إليه مُستكراً:

- "يعنى إيه؟! هنرجع البيت تاني؟! .. أرجوك فكر تاني يا دكتور قد يكون تمويه من البيبي، ما هو طالع لأبوه هيطلع لمين؟"

اتكأت ابنتي على يد الكنبة وقد شَخَصَتْ عيناها نحوي، تتأملني مُتبرمةً لأنني أتوقَّف كل هُنْيهةٍ وأخرى.

-بابا .. بابا .. يعني إيه رُهيف دي؟

بابا أغلب الكلام مش فاهمها؟

نظرتُ إليها نظرة امتعاض وقد انتويت أن أنهي القصة إلا أن إصرارها وتشبُّثها جعلني أمضي في الحكاية،

حتى هنا، وتكاثرت عليَّ الإنذارات الكاذبة، فأضحت زيارة المستشفى تقليدًا إجباريًا لا يَنفكُ يتكرَّرُ كل يومين أو ثلاثة، وطُبِّعت الزيارة بطقوسٍ ومراسمٍ تبدأ بتحية الأطباء والمرضات، والأمر لا يسلم، فقد تظهر الإنذارات في غسق الليل، فتبدأ في ارتجال الظهور بداية من الساعة الواحدة، ولا يعني تلك الإنذارات أنني أعمل طوال النهار، ولا يتوقف ذلك عندما أعودُ إلى المنزل بل أستتبعه بعملٍ آخر، هو تنفيذ طلبات زوجتي فيصبحُ حالي أقرب إلى عمال التراحيل الذين لا يستقيم ظهرهم من كثر الاحمال المتوالية ليلاً أو نهاراً، فيُقَضُّ الأرقُّ مضجعي، ويرافقني السُّهاد ليومٍ طويلٍ.

أستكملة في الصباح في نوبات نوم مُتقطعة في الميكروباص أو بين غفوةٍ أستحدثها في منتصف النهار، أهججُ فيها مُعانقاً سَطَحَ المكتب كمخدةٍ وثيرةٍ أسلبتني كل محاولات النشاط، والحق يُقال، إن ردودَ أفعالِ الطاقم الطبي كانت شبه موحدة، فكانت تتنوع ما بين ”إنت قلبك خفيف“ ”إتقل كده“

”شكله المولود الأول“ ”اللى يسيب ودنه للحريم“ ”كله بأمره“
بخلاف الكثير من التعليقات الجانبية التي تسمعها كشظايا عابرةٍ
تُطلِّقُها الممرضات تلميحًا لا تصريحًا.

ولا شك إن النوم إحدى النعم المغبونون فيها، إحساس رائع أن
تغمرك السكينة بعد يوم شاق من العمل، أن تُسلمَ رأسك للمخدة
وتلتحفُ غطاءً ناعمًا وأنت مستحوذًا على السرير بأكمله، فتتقلبُ
كيفما تشاء، لتشعر بسطوتك وجبروتك في التنقلِ داخل حدوده،
ممارسًا حريتك في التشقلب والترفيص دون التفكير بمن حولك.

تسلبك المغامرة إحساس الخوف والترقب، فتسري النشوة
داخلك، ويتناغم ذلك بشعورك بالغوص بين أمواج الغطاء وكأنك
بين أمواج البحر،

تتلاأ أشعة الشمس كقطعة ماس تبرق على صفحة الماء كالمذلك
ذي الأنامل البارعة، ينزعُ منك الإرهاق والتعب
فجأة ..

اغتصب صوتٌ هادئٌ متعة السباحة، كأنه باخرة تمخرُ عباب
البحر، لا بل هي ناقلة نبطٍ فظلُّها يتغشاني ..

سأموت ..

سأموت

لم ينقذني إلا كَفُّ على وجهي وصوت ناهد وهي تصرخ:
- الحقني .. " هاولد " .. مش قادرة .. بسرعة يا سامح
.. بسرعة ..

انتفضت ابنتي صَحْجًا وهي تتخيل الموقف:

- هههه مرددةً بسرعة يا سامح .. يلا بسرعة هاولد ..

حسنًا كادت إنذارات ناهد الكاذبة تُذكِّرني بقصة الراعي والذئب
التي قصصتها عليك وأغلب ظني أنه جاء الوقت لأقوم مقام أهل
القرية، وأن أنكر تلك الإنذارات الكاذبة، فقليلٌ من النوم لن يفرقَ
معها شيئًا لكن سيهْبني شيئًا من الراحة بعد يومٍ شاقٍّ ومُرهِقٍ
لَمْ أَدُ أَعْمَضُ عَيْنِي حَتَّى شَقَّ أَزِيذُ طَائِرَةِ مِيرَاجِ ١٦ أذني بَصْرَاحِ
زوجتي:

- "إنت هتنام .. هتنام وأنا كده .. فينك يا ماما؟ فينك يا بابا؟
إنت مش حاسس باللي فيا .. أنا هانزل لوحدي .. أه .. أااه ..
الحقيني يا ماما ..

وأمام عاصفةٍ من النواح لم أجد بُدًّا أن أتعامَلَ مع هذا الإنذار كأنه
جَادٌّ، فلبستُ ملابسِي بتكاسُلٍ طَرَدَهُ نَوَاحُ نَاهِدٍ وَصَرَاحُهَا فَتَنَفَضْتُ
النعاسَ

وقمْتُ بالمُقَرَّرِ الرُّوتِينِي، اتَّصَلْتُ بِسَائِقِ التَّاكْسِي، وَأَنَا أَحَاوِلُ
تَهْدِئَةَ نَاهِدٍ، وَقَدْ آثَرْتُ نَفْسِي بِغَفْوَةٍ سَرِيعَةٍ لَا تَتَجَاوَزُ ثَوَانِي عِدَّةً،
انْتَزَعْتَنِي مِنْهَا بِصِيحَةٍ تَأْوُهُ مُفَاجِئَةً.

قَابَلْتَنَا الْمَرْمُضَةُ بِابْتِسَامَةٍ نِصْفِ سَاخِرَةٍ، أَظُنُّهَا تَتَشَفَّى فِيَّ أَوْ
هَكَذَا خُيِّلَ إِلَيَّ.

-خير ..

-خير بس شكلها المرة دي بجد.

-ما هو كل مرة تجي تقول بجد .. إنت قلبك خفيف!

ابتسمت لها ابتسامة صفراء مُتسائلاً:

-أين الكرسي لننزلها من السيارة؟

دَخَلَتْ نَاهِدُ الْمَسْتَشْفَى وَهِيَ تُحَوِّقُ وَتُبَسِّمُ وَتُمْسِكُ بِكَفِّي ..

-لا تتركني يا سامح .. أرجوك خليك معايا.

-طبعاً يا حبيبتي، إن شاء الله خير ..

كَشَفَ الطَّبِيبُ عَلَى نَاهِدٍ، وَعَايَنَ حَالَتَهَا، ثُمَّ أَمَرَ بِتَجْهِيزِ عُرْفَةِ
العمليات.

يبدو أن الموضوع جاد هذه المرة

هناك عمليات ... كنت أتساءل بدهشة: لماذا أنا فُلقٌ لهذه الدرجة؟

الموضوع عادي؟!

ثم ألتفتُ إلى نفسي مُتعبجاً لهذه الإسطمبات الجاهزة من
الإجابات .. عادي إيه؟

هو أنا خلّفت قبل كده؟

ولا اتجوزت قبل كده؟ أنا غريب فعلاً!

القلق طبيعيٌّ ومنطقيٌّ في هذه الأمور، لكن إن شاء الله الأمر
سيكون بسيطاً وسهلاً، لم أجد غير أمي أهتدي بحكمتها وخبرتها
في الحياة، فأمي - ما شاء الله - أنجبتنا تسعة، ولها من الخبرة
الكبيرة في الإنجاب ما يُهَوِّنُ على ناهد الكثير،

فأتصلتُ بها .. وطلبتُ منها أن تُهدّيَّ من رَوْعِ ناهد خاصة وأن
حالتها الصحية لا تسمح لها بزيارتنا في المستشفى، فأخذت
تدعونا بالخير وأن يُتَمَّ اللهُ ولادتها على خيرٍ، وطلبتُ إليَّ أن أفتح
سماعة الجوال الخارجية لتكلم ناهد.

انتشت ابنتي فَرِحَةً؛ فهذه الفترة تاريخية في حياتها ولأول مرة
تعرف هذه التفاصيل.

-كيف حالك يا حبيبتي؟

لا تقلقي يا ناهد فالأمر يسيرٌ، لن تشعري بشيءٍ، هل تعرفين
كيف أنجبت سامح؟

كان الأمر في غاية البساطة، كنتُ أتسوّقُ في سُوقِ الخضراوات،
وبينما أتخيّرُ من البُطيخِ أحسنَه..

إذ فجأةً سمعتُ صوتَ بكاءٍ تحتي، فالتفتُ إلى الأسفل فوجدتهُ
سامح، وعندها أصرّت بائعة البُطيخ أن تأخذني لبيتها لأتخلّص
من مُتعلقات الحمل، ولم يستغرق الأمرُ ساعةً حتى اغتسلتُ
وذهبتُ إلى المنزل، أنمتُ سامح وحضّرت الأكل لعمك الحاج
حمدي. فاكر يا سامح واعي للكلام ده يا حبيبي..

لم يكن أمامي إلا التصديق على كلام ماما .. فهل من المعقول أن
تُخطئُ أمي أو تؤلّف؟!

بالطبع لا

-طبعا فاكر يا ماما ..

-“تلاقيك لا فاكر ولا حاجة، إنت شكلك ما توعاش للكلام ده”،
كنت صغير برضه.

تابعتُ ملامحَ ناهد وهي تسمعُ الحوار كأنما تشربُ شربة زيت
خروع، فقد تغيّرَ وجهُها وتناوبَ حاجباها الارتفاع والهبوط،
وامتدت شفتاها للإمام، ثم التوى فمها فجأةً، حين وصلتُ أمي
لجزئية أنها أنامتني وعملت الأكل لأبويا الحج .. حتى ظهر أن
الكلام سيكون له الأثر، إنها ستلد قبل موعدها، وردت بصوتٍ
مبحوح من التملل ..

-شكرًا يا حماتي .. ادعلينا بس الموضوع يبقى سهل.

-هيبقى سهل أوي .. إنت فاكر لما ولدت اختك فاطمة .. لا ولا هفتكر إزاي، إنت كنت لسه ما اتولدتش .. فايذة اللي تفتكر كانت كبيرة وقتها .. أختك فاطمة دي .. حكايتها حكاية .. كنت زعلانة مع عمك حمدي علشان مكنتش بخلف إلابنات بس ...
أشارت ناهد إليّ بالاقتراب .. وهمست في أذني:

- مش القصة دي سمعناها قبل كده أكثر من عشر مرات ..

فعضضتُ على شفتيّ لتُمررها .. فماما مغرمة بتكرار القصص إلى حدّ أنها أصبحت مُقرِّراً أذاكره من أيام المدرسة، حفظته عن ظَهْر قلبٍ.

استأذنتُ أمي لِنستعدّ لدخول ناهد غرفة العمليات، وقد تأبطتُ حكاياتها، واستفادتُ بخبرتها العريضة في إنجاب الأطفال النجباء أمثالي وأمثال إخوتي العباقرة.

احتضنت يدي ناهد وهي تدخل غرفة العمليات ولساني يلهجُ بالدعاء مُثبتاً إياها وهي تُلحُّ عليّ

-عاهدني يا سامح ألا تتزوج واحدةً غيري إن حدث لي شيئاً ..
عاهدني ألا يُربي ابنتنا أو ابنتنا إلا أمي وأبي ..

ضغطتُ على يدي:

-عاهدني يا سامح ..

احتضنتُ يديها بيدي الأخرى هامساً:

-أُعاهدُك يا ناهد أني لن أكون ديكتاتوراً، ولن أختار اسم المولود بمفردتي، وسأمنحك شرف مشاركتي الاسم ..

وبين نداء الممرضة وصُراخ ناهد .. تركتها وقلبي مُسجى بين يديها، ومرّت الدقائق طويلة سمجة، والهواجس تعبت بي، ولم تمض لحظات حتى هتّك صوتٌ ستر الصمت ..

-مبروك ألف مبروك يا سامح .. ولد ولا بنت ..

-مين؟ راجي!

نظرتُ إليه من أعلى إلى أسفل .. مُتسائلاً إيه اللي ولد ولا بنت! لم تدخل العمليات بعد.

فأشاح بيديه مازحاً:

-إنت على طول بتحب تضحك كده .. أنا بقولك المولود ولد ولا بنت ده الناس بتعرف قبلها ب بستة شهور، إيه بنت ولا ولد.

فمططت شفتيَّ إلى الأمام، لم أحاول أن أعرف، أريدُ أن تكون مفاجأة.

-ألا تُفَضِّلُ الأولاد على البنات؟

-لا، ولا البنات على الأولاد كلهم رزق من الله وفضل،

-لكن نفسك تهفو إلى أحدهما بالتأكيد!

-نفسي تهفو إلى كَرَمِ الله

وبعدين .. إنت مالك إنت أهفو ولا لا أهفو،

-مش هتفرق في الآخر رزق،

-بس على الأقل تكون محضر اسم سواء للولد أو للبنات .. محضر

لبس .. محضر بلايين .. أي مظاهر احتفال، بس أكيد لازم تكون

محضر أسماء هتسمي المولود إيه.

قَطَعَ جِدال راجي مجيء الممرضة لتزف إلي بُشرى المولود

الجديد بنت ..

بنت ..

لقد رزقتي الله بنتاً

ما أجمل رزق الله!

كنتُ كالظمآن إذا استنفد كل الصبر في قلبه ليطل عليه الأمل في

وجه الممرضة باشةً، ليجعل الخبر لي جناحين أرفرفُ بهما في

أروقة المستشفى

كان كل شيء فرحاً، كل شيء يُشارِكُنِي الحمدَ، فلساني يَلْهَجُ
بالحمد على ما رُزِقْتُ، والحمد على صِحَّةِ ناهد، والمُلصقات التي
تُزِينُ أبواب الحضانات تتهادى نَعْمًا على دقات قلبي، وميكي ماوس
يُراقِصُ ميمي في غرام وسعادةٍ وتبوتِي يُرْفِزُقُ كما لو كان في حفلةٍ
تتكرِيَّةٍ، حتى راجي اعترت شفثيه ابتسامَةً لأول مرة أراها منذ كُنَّا
صِغَارًا.

-بنت يا راجي ..

لحظات وجمعني وناهد جُدران الغرفة، وبعد أن ذهبْتُ بالمولودةِ
إلى الحضَّانة .. سَبِرْتُ الفرحةُ أغواري فلم أعرفُ بماذا أبدأ ..
لم تَطُلْ لحظاتُ الانتظار حتى غمرتنا رسائل ومكالمات التهنئة،
لحظات ودَّق باب الغرفة

ليدخل صديقي راجي وياسمين وبعد مزيج من الأسئلة والتطمينات
انبرت ياسمين تسأل:

-هتسموها إيه؟

ردت ناهد:

-على اسم أمي.

فتدخلت ضاحكًا:

-ولماذا ليست على اسم أمي .. نظيمة مالها!



فتحنحت ناهد:

- طيب لماذا لا يكون .. هويدا .. فاسم أمي أكثر عصريّة من
نظيمة ..

- لا لا يا ناهد، كله إلا اسم ماما ..

تدخلت ياسمين:

- أنا شايفه إن ممكن تختاروا اسم آخر بعيد عن أسماء أمهاتكم.
ما رأيكم في عفاف؟

ريهام؟

سعاد؟

تدخل راجي:

- كلها أسماء قديمة يا ياسمين ..

لماذا لا تكون تولين؟

أورنينا؟

- نعم! مين؟ إيه؟ أورنينا مين يا راجي؟

- ده اسم رائع ومعناه مميز جداً

دي إلهة الموسيقى عند البابليين والآشوريين



طيب إيه رأيكم في أوتيليا؟

-وده معناه إيه؟

-خسوف الشمس باليوناني؟

-روح يا شيخ وتعال بسرعه، إيه الأسماء دي؟!

-لا يا سامح .. سأسميها ناهد على اسمي.

-ولماذا تكون ناهد أس اتين

لأ طبعاً هذا غير مقبول ..

-لماذا أظنُّ أنّ كونك رجلاً يعطيك الحقُّ أن تقوم بأي شيءٍ دون
إذنٍ مني.

-الأمر ليس كذلك.

تدخلت ياسمين:

-هناك لحظاتٌ فعلاً يعطي الرجل نفسه الحق في فعل أي شيءٍ
فقط لأنه رجل .. ولا يراعي...

تدخل راجي مقاطعاً:

-يا جماعة ... المناسبة لا تحتمل هذا الكلام .. ياسمين من
فضلك .. أعتقد حان وقت ذهابنا.

قاطعتني ابنتي مُتسائلةً:

- مين دول يا بابا؟ أنا مش حبتهم خالص ..

احتدم الخِلافُ بيني وبين ناهد ، وعلا صوتانا ، ولم أراعِ أنها قد وضعت وليدها للتو، كما أنها لم بيدُ عليها أي مظاهرٍ للتعَب أو الإرهاق، فقد كان نقاشها أشبه بطلقات مدفعيةٍ في حالة اشتباك. فلم يلبث أن جاء اقتراح راجي أن نسمي البنت بطريقةٍ مُبتكرةٍ، أن نسميها باسم أول شخصٍ يطرقُ باب الغرفة.

بلغ الحماس بابنتي مَبْلَغَه:

-يعني إيه؟ أنا اسمي وليد الصدفة!

ونالت الفكرة إعجابنا جميعًا، وظللنا في حالة توجُّسٍ وترقُّبٍ:

مَنْ سيطرُقُ الباب؟

وكلُّ يدعو أن يكون اسم مَنْ يطرق الباب على هواه،

وفجأةً علت أصواتٌ تقتربُ من الباب،

والكل أصاخ السَّمْع، وعلت دقات قلبه مُتخيلاً اسم البنت المسكينة التي تسكن الحضّانة المجاورة

ماذا سيكون اسمها

مَنْ سيطرُقُ الباب، وما أصل الاسم!



هل سيكونُ مُكرِّراً؟

وهل سنُذعنُ له أم سيكونُ مِنَّا مَنْ سيتمرّدُ عليه ويُعلنُ العِصيان؟

الخطوات ثقيلة تزحف على الأرض زحفاً ..

يبدو أنها أمي ..

لا، إنها أمها ..

عمي .. لا عمي رشيق ..

حماتي لا ... لا حماتي خطواتها بطيئة،

التفتُ إلى راجي ..

-كأنه صوت شبشبٍ يزحف على الأرض.

غير معقول هل ستأتي حماتي بشبشب؟

لحظات ..

وفُتِحَ الباب ...

لتظهر ممرضة أثيرية سمراء مع ابتسامةٍ تظهر أسنانها البيضاء
الناصعة، وقد انحنى ظهرها مع لمحةٍ حُسنٍ تُشكّلُ ملامحها ..

فاقترب الجميع منها

فارتعبت ... ثم قالت بلغة عربية مكسرة ..





- هو فيه حاجة؟

وفجأة علا صوت ناهد وهي تقول:

- لا اااااا ..

لا لن أستجيب لنتائج اللعبة ..

هل من المعقول أن نُسمي ابنتنا كذلك ؟

- وفجأة دخلت علينا ناهد لتصيح بصوت عالٍ:

- ديستا ..

لماذا تسهرين هكذا إلى وقت متأخر؟

هل انتهيت من واجباتك؟









فيلم برونو



وقتها نُدركُ مدى ضحالة التعليم الذي تلقيناؤه، لنصبح في مواجهة ”الفهلوة والفحافة“ وجهاً لوجه، إما أن تعملُ على نفسك وتختارُ الطريق الصحيح لتحقيق هدفك، وإما أن تتسلحُ بمنطق ”إحنا اللي دهنا الهوا دوكو؛“



تثناءً أُمجد وهو يجرُّ قدميه إلى باب الشركة جراً، المَشاهد كلها مُشوَّشة، يغالبه النوم كرجلٍ فتِي يُصارِعُه فيحاول المقاومة، وما يلبثُ أن يصرعه، فيراودُ رغبته في الاستسلام بفتح عينيه على اتساعهما، فما يلبثُ أن تخورُ قواه لتتسدل جفونه رافعةً راية الاستسلام، يؤزُّه في ذلك وخزُّ ضميرٍ لا يعرف الراحة، يتتبعه كلصٌّ فقد طريقه، يوقظه كل لحظةٍ من نومه بعد يومٍ طويلٍ كابدَ فيه التعبَ، إنتهى مع ساعاتِ الفجرِ الأولى، والمفارقةُ أن نظام العملِ يفرضُ عليه الحضورَ مُبكراً ليثبتَ حضوره على جهاز البصمة.

شدَّ أُمجد نفساً طويلاً من السجارة وهو يتكئُ بذراعه على الحائط المُجاور لبابِ الشركة، مُتأملاً تلك السُحبَ الرمادية التي تخترقُ الهواءَ النقي بقوةٍ، مُعلنةً رفضها لحالة السكون، ثم ما تلبثُ أن تتبددَ بعد ثوانٍ معدودةٍ كأنها لم تكن، رمق السجارة بين أصابعه باشتهاءٍ مُتردِّداً...

أطلقها من بين أصابعه، أم يؤثّرُ نفسه بنفسٍ آخر!

إستمع أُمجد بنفسٍ آخرٍ مُنتشياً بلذتها، تلاشت السجارة بين أنامله كنشوةٍ زائلةٍ وتناثرت بين ذرات الهواءِ، صعدَ أُمجد السُّلمَ مُتصنِّعاً النشاط، مُحاولاً أن يوقظَ نفسه بدنونة أغنيةٍ قديمةٍ لاحت في ذاكرته، إلا أن لوحةً كبيرةً مُثبتةً على واجهة السُّلمِ ألجمتُ لسانه (الغناء حرام).

ارتقى إلى مكتبه في صمتٍ، ضغط بكفه على نظام البصمة
مُثَبِّتًا حُضُورَهُ ثم خَرَّ على كرسیه كمن هوى من عَلٍ، وأسند رأسه
شاخصًا ببصره إلى سقف الغرفة لا ينوي على شيءٍ، نظر إلى
ساعته فوجدها الساعة والنصف صباحًا،

رغم أنني أنهيت عملي الساعة الثانية والنصف بعد منتصف الليل
فإن نظام العمل يُحْتَمُّ عليَّ أن آتي في الصباح الباكر كل يومٍ لأثبت
للنظام أنني ”أعمل“

ورغم أنني عادة لا أفعل شيئًا، وأن جُلَّ وقتي قد أقضيه بين
نومٍ وعبثٍ، فإن بعض الشركات ترى إن قيمة العمل في الالتزام
بالمواعيد لا في النتائج.

أضأت نور الاستوديو، فتحت الأجهزة، وضعت السماعات لتحتضن
أذني في محاولةٍ للاستيقاظ، بالاستماع إلى التوزيع الموسيقي
لحفل الأمس، كان حفلًا جميلًا..

الحفل الأول الذي أُعدُّ هندسته الصوتية بعد وصولي الخليج...

حسنًا، إنه جميل، لكنه ليس على مستوى الأعمال التي كنتُ أقوم
بها من قبل، لكنني أديت دوري - على الأقل - بشكلٍ احترافيٍّ، أبْت
ابتسامًا ساخرةً إلا أن تحتل ملامحي

فمفهوم الاحتراف مفهوم مطاط في بلادنا، فلدينا نظرة قاصرة
أننا دومًا الأفضل والأذكي والأمهر..

يُرسِّخون في أذهاننا أننا ورثة حضارة سبعة آلاف عام، وورثة
صُنَّاع الأهرامات وأحفاد العظماء، يفرسون تلك الأفكار نبته
صغيرة حتى تترعرُع داخلنا فنتشربها حتى الثمالة، فتظهر عورات
خبراتنا فجأة في أول احتكاكٍ فعليٍّ بالعالم من حولنا..

وقتها نُدرِك مدى ضحالة التعليم الذي تلقيناه، لنصبح في مواجهة
”الفهولة والفاككة“ وجهًا لوجه

إما أن تعمل على نفسك وتختار الطريق الصحيح لتحقيق هدفك،
وإما أن تتسلَّح بمنطق ”إحنا اللي دهنا هوا دوكو“^(١)؛ لذا قررتُ
أن أجتهد لأصبح واحدًا من المحترفين الذين يُشهد لهم بالمهنية
والمهارة؛ فقد أجمع فريق العمل على إن الأداء فاق المعتاد، وأثنى
كل من المخرج ومدير التصوير والإنتاج على جودة العمل، وأشاد
العميل بأدائي.

التقطت اذناي تهادى صوت أقدام أبي نواف الثقيلة على الدرج،
لمحت انعكاس صورته على شاشة الكمبيوتر، وهو يرتقي الدرَج
مُتوجِّهًا نحو الاستوديو، فابتدري بالسلام بصوته المبحوح
فالتفتُ إليه مبتسمًا.. ف”أبو نواف“ ليس صاحب الشركة التي

١ - مثل شعبي مصري يعبر عن الفهولة والشطارة.



أعمل فيها فحسب، بل كفيلي^(١) الذي أنتمي إليه، رددت سلامه
بؤد ظاهر:

- وعليكم السلام.. أخبارك إيه يا أبو نواف!

كان أبو نواف رجلاً طويلاً القامة، عريض المنكبين، يلبس ثوباً
أبيضاً ناصعاً على الدوام، مع غُترة بيضاء تُغطي رأسه دون عقال،
يميلُ وجهه إلى البياض مع حاجبين لم يعرفا معنى التشذيب
وذقنٍ أسودٍ داكن اللون أشعث، يصلُ إلى مُنتصفِ صدره، يتميزُ
بجدّة الطبع وسرعة الغضب،

تقدم أبو نواف خطوات ليقفَ على باب الاستوديو وسألني بنبرة
هادئة:

- عسى أمورك تمام..

إيش أخبارك؟ علومك

كلشن زين؟

ثم تحوّل صوته من النبرة الهادئة إلى أعلى قليلاً، ومع حركةٍ
خفيفة من يديه:

-يا خوي أمجد.. وشو الخرابيط اللي سويتوها أمس في الحفل؟
وشوها لشغل؟

١- صاحب العمل وفق النظام في منطقة الخليج العربي.





أَحْسَسْتُ أَنْ أَحَدًا أَلْقَى بِي مِنْ نَافِذَةٍ فِي الدَّوَرِ العَاشِرِ عَلَى حِينِ
غِرَّةٍ، فَهَزَزْتُ رَأْسِي مُحَاوَلَةً لِنَفْضِ النُّوْمِ وَقَدْ تَلَعَّمْتُ، فَخَرَجَ الكَلَامُ
مُبَعَثًا:

-أي شغل يا أبو نواف؟

فجاء ردهً حادًا مع تلويحةٍ حادةٍ بيديه:

-وشو تستهبل أنت؟

أقولك شغل الخرابيط تراك ما سويت غيره!

-تقصد حضرتك الحفل؟

كل من حضر الحفل أتى عليه وعلى الجهد المبذول فيه.

-وشو اللي أتى وما أتى!

هذه خرابيط أقول..

انتفضت وقد طار النوم من عيني

-أبو نواف ما عيوب الشغل من فضلك؟

حرّك أبو نواف يديه بلا مبالاةٍ وتركني وهو يُغمغمُ بشيءٍ ما،
حاولتُ فهمه فشقَّ عليّ، لكنني استوعبتُ أنه غاضبٌ، وأن الحفل
لم يرقِّ له، كما لم يرقِّ لي أيضًا أسلوبه في الحديث معي وتجاهله
لسؤالي دون إجابة تشفي غليلي.



تسمّرتُ مكاني لحظاتٍ استحضرتُ الموقف من جديد، مجتهداً في ربط الأحداث بعضها ببعض، فكل المؤشرات تشيرُ إلى أن الحفلَ حاز رضا الجميع، أو على الأقل هذا ما اعتقدته، إلا إذا كان هناك مَنْ يُمارسُ عليّ التّقية⁽¹⁾ فيقول في وجهي رأياً ويغيّره عند أبي نواف، ووقع في ذهني أن هذا فعلاً ما حدث، وكأنسانٍ محترفٍ قررتُ مُراجعة مشاهدِ الحفلِ مشهداً تلو الآخر لمعرفة العيوب المهنية التي يمكن أن تُؤخذَ عليّ.

وأغلقتُ بابَ الاستوديو، وسرّبتُ أذناي بالسماعات وانخرطت عينايا في متابعة مشاهد الحفلِ بتمعنٍ شديدٍ...
مشهداً مشهداً...

كان شريطان يدوران في ذهني في الوقتِ نفسه، شريطُ الحفلِ الذي بدأ بالاستعداد لدخول الأمير، مُتواكباً مع شريط حياتي الذي بدأ في معهد السينما بقسمِ صوتيات، وتَفوّقي وانبهار الدكاترة بي في ذلك الوقت وبُشراهم لي بمستقبلٍ واعدٍ.

الاستعداد على قدمٍ وساق، نريدُ تجربةَ الإضاءة.. الإضاءة من فضلكم.. كان أحمد السعيد ”المخرج“ يزعق في مُكبّر الصوت:

- البروفة النهائية يا أساتذة..

حسناً سأعدُّ ثلاثةً ثم نبدأ الإضاءة

١- أظهار عكس ما يضر.

-واحد

اثنان

ثلاثة، داير.

انبرى مهندسو الإضاءة في العمل؛

حيث تتمازج الألوان بشكلٍ ساحرٍ كلوحةٍ تشكيلية عملاقة، يشاركُ فيها عشرات الفنانين بقرشهم وأدواتهم.

في مسرح الجامعة، كان لقائي الأول مع الدكتور نيازي، وهو يُقدِّمني إلى الفنان سليم بأني اكتشافه في مجالِ الصوتيات، الاكتشاف الذي سيحدث ضجةً مُدويةً في عالم الفن.. وقتها.

لم أصدق نفسي أني أقابل فناني المحبوب سليم وجهًا لوجه؛ فأنا مُتابعٌ مُخلصٌ لأغانيه وحفلاته، خيالي لم يجنح يومًا لأتصور نفسي أعمل معه جنبًا إلى جنبٍ

نعم أعمل معه في الفرقة الموسيقية نفسها.

يا جماعة نركز شوية.. عارف إننا شغالين بقالنا ١٦ ساعة في الموقع، لكن الحفل بعد بكرة ومفيش مساحة إننا نغلط.. يا ريت مسؤول المجاميع ينتبه إن إشارة بدء دخول الفرق الشعبية هتكون

مع آخر الجملة الموسيقية اللي هيعملها أمجد

نجرب ثاني يلا..

واحد، اتنين، ثلاثة، أكشن..

أيوه .. أيوه .. إيه الجمال ده؟

برافو يا جماعة.

.. Final rehearsal

بروفة نهائية، كل واحد ياخذ موقعه بسرعة يا أساتذة..

أهروؤ بكل قوتي لألبي دعوة سليم في حضور حفل التكريم في
مهرجان الأغنية العربية لأفاجأ بحصولي على جائزة أحسن
مهندس صوت، إحساس رائع يشوبه الفخر، نظرات التقدير
تحيط بي من كل جانب، وفلاش الكاميرات يتعقبني، بين يومٍ وليلة
أصبحتُ نجمَ غلاف..

وتكاثرت عُروض العمل عليّ كسربٍ من الفراشات مأخوذاً بالضوء.

طرق النجوم بابي لأعمل معهم، لكنني آثرتُ الإخلاصَ لسليم؛ فهو
بوابة الرزقِ وفأل الخير، التي ببشارتها فُتِحَت الأبوابُ المغلقة.

قطع سيلَ ذكرياتي صوت أحمد سعيد المخرج:

-أمجد.. أمجد... هل قابلت أبا نواف اليوم؟

-نعم قابلته، وليتني ما قابلته؛ فقد ذمَّ عمل أمس كله ونعته بأنه
”خرايبط“.

أوماً أحمد السعيد برأسه متابعاً:

-كلمني الساعة الثانية فجراً، ولامني، وأنبني فيما يخص الهندسة
الصوتية.

-جميل.

رداً أحمد:

-وما الجميل في ذلك؟

-الجميل أن نعرف أين مواطن القصورِ في العمل؛ فأنا لستُ
بمبتدئٍ حتى أترك نقداً خلفي، وظنني أنني اجتهدت لأُخرج
الحفل بصورةٍ رائعة، خاصة أنني أطلعتُ على الحفلات السابقة،
ومستواها متواضعٌ بجانب ما قمت به.

إلتفتُ إلى جهاز المونتاج ..

-انظر هنا يا أحمد..

إلى هذا المشهد .. الموسيقى متناسقة حتى مع تغيُّر وقع الإيقاع،
التغيُّر انسيابيُّ بشكل رائع لم يلحظه أحد!
دقُّق السمع هنا..

أحمد:

-أين بالضبط؟

-صه يا صديقي.. هسسسس.

تفاعَلَ أحمد معي كأنه يرى المشهد للمرة الأولى.. علا وجهه شبح
ابتسامة .. ما لبثت أن كلَّلت ملامحه .. مشيراً بإصبعه إلى الشاشة:

-انظر إلى حركة المجاميع وتلك الصياغة الموسيقية الساحرة..
فعالاً يا أمجد .. إبداع، لم أتخيل أن تكونَ إضافتك للعمل بهذا
الثراء؛ فلقد عملتُ بالشركة في حفلاتٍ عدة، لكنك صنعتَ من
هذا الحفل تحفةً فنيَّةً؛ فلمسأتك الاحترافية أضفت بهاءً عليه لم
يكن ليتحقق من دونك

ولكن - للأمانة - هذا الحفل الأول الذي أعمل فيه تحت إدارة
أبي نواف مباشرة

فما زلتُ حتى الآن لا أعرف سبب تدمُّره أو نَقْدِه للعمل، على أي حال سأذهب لمقابلته وأعرف وجهة نظره وأعود إليك.

أومأتُ برأسي، ووضعت السماعات مُستغرِفاً في مُراجعة الحفل من جديد عليّ أجد مَواطِنَ القُصور التي قَلَبْتُ إنجازي إلى ”خرايبط“.

ها قد اقتربت اللحظةُ المهمة مع اعتلاء الأمير المنصة ليعلن انطلاق الاحتفال بالدورةِ الثالثة للعملِ الوطني، اجتهدتُ في بلورة تلك اللحظة بعملٍ ملحمة موسيقية بين الإيقاعات المحلية والجمل الموسيقية.

مع انتهاء كلمة الأمير، بدأت مجاميعُ الرقص الشعبي في اعتلاء المسرح، وشرعت الرقصات التراثية تصاحبها الأهازيج الشعبية، وتتمايلُ على إيقاع الخُبَيْتي⁽¹⁾، تتبعها الفرقة الأولى يُغازلها إيقاع السامري⁽²⁾ في مشهدٍ بديع.

بدأ الإيقاعُ في التصاعدِ شيئاً فشيئاً، والجمل الموسيقية تتلاحقُ لاهتةً في تبرُّمٍ واستعجالٍ لخروج الفنان سليم مع المطربة العالمية ساندرنا في أول دويتو يجمعهما معاً، بتوزيعي أمجد مروان، تناغمت

٢-١: إيقاع تراثي في المجتمع الخليجي.

الألحان لتحصد الأغنية الجائزة الذهبية في استفتاء أفضل توزيع
موسيقي للسنة الماضية.

ياااااااااا!!

كل هذا التغيير حدث لي في سنة واحدة، أو أقل؟

وفاة سليم

الانهيار العصبي الذي أودعني المستشفى شهوياً عدة

عزوفي عن العمل

قبولي عرض العمل في الخليج بشركة متواضعة.

شوش علي صوت أبي نواف صارحاً في بداية ممر الاستوديو:

-وشو شغل وما شغل الله يهديك؟

هذا لعب بذران⁽¹⁾ تضحك فيه على حد غيري..

تقولي فن وهي أصوات نشاز؟

أف لكم..

استفزني الحوار فقممت متحفراً لأسأله بشكل واضح:

-يا أبو نواف لو سمحت، كلمني بأسلوب مهني

1 - نفظ يقصد به الأطفال الصغار.

أنا جديد على بيئتكم الاجتماعية، فأرجو أن توضّح مواطن
القصور..

لقد راجعتُ الحفل ولم أجد فيه عيوبًا تستحقُّ هذا النقد الجارح.
احمرّ وجه أبي نواف وأشعرني كأنني أهنته بكلامي بأنني لم أفهم
العيبَ الواضح في الحفلِ على الرغم من شرحه غير المفهوم منذ
الصباح.

-يا خوي أنت ما تفهم؟

أقولك خرايبيط..

مو حفل هذا..

وشو هذي الموسيقى؟ هذا مو حفل،

هذا فيلم بورنو اللي انت مسويه!

هذا حفل إباحي - الله يرحم والديك-

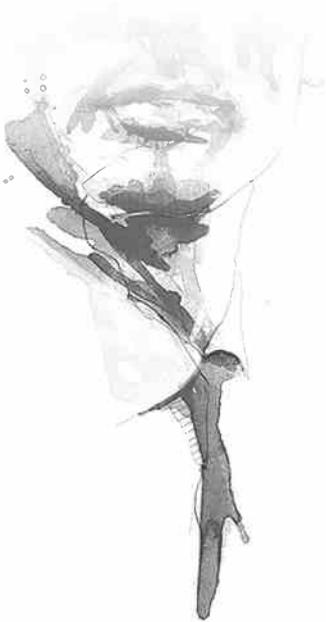
ما تدري إن الموسيقى حرام؟

تدري ولا ما تدري؟



نحن ما نشغل موسيقى..
إحنا نحط مؤثرات صوتية
هذا الحفلُ بالأسلوب هذا نرفعه على اليوتيوب ونسميه
فيلم بورنو





Jeles





كرافته حينئذ



فما تظهر ربطةً جديدةً حتى يسارع لتعلّمها مُنفقًا
الساعات في تجربتها حتى الإتقان، ذوقه راقٍ في اختيار
الألوان، له نظرةٌ فنانٍ في تناسقها، فاخيارائه مبهرةٌ،
فالبدلةُ السوداءُ لا يُظهرُ ألّقاها إلا قميصٌ أبيضٌ مُقلّمٌ،
ولا يزيدها بهاءً إلا تلك الكرافته الحمراء كحسناءٍ يافعةٍ
تتدلُّ عراقًا.



المكان مُظلم، الأجساد مكدسة جامدة أجناس من كل نوع، وعلى الرغم من اتساع المكان إلا أنهم زَجَّ بهم ها هنا، وكأنما تجمعوا في عنق زجاجةٍ

بصيص نورٍ ضعيفٍ يَنْبُثُ من فُرْجةٍ صغيرةٍ على استحياءٍ
صمَّتْ مُطْبِقُ يَخِيْمٌ على الجميع.

بعض همساتٍ متواترةٍ كرزاذ المطر على الأسفلت، تُعَبِّقُ الجوْثم ما لبثت أن يتقاذفها البعدُ كأصواتٍ انزوت وتلاشت هناك كانت هي مُعتدَّةٌ بنفسها غير عابئةٍ بما يحدث.

هم يضمرون نفس النِّيَّاتِ، ولكن تنقصهم الجرأة، حتى شَقَّ الصمَّتُ صوت أحدهم:

-كان يوم مجيئك إلى هنا شوؤماً علينا..

-لا أدري ما الجميل فيك؟!

تبرَّمت ثم ما لبثت أن لاذت بالصمَّتِ من جديد،

لكن الرغبةُ في الرد أجبرتها على الحديث:

-أنا فعلاً أعاني من التعامل مع أشكالكم، الموضوع ليس له صلة بالتشاؤم والتفاؤل، الموضوع ”أصل وفصل“ وشكل وإمكانات ”لامؤاخذة“.



-إنتي .. أيوه إنتي .. ”يا اسمك إيه ... أوووف أنا فعلاً بانسى
أسماؤكم كلكم شبه بعض!“

تحنح صوتٌ وقورٌ من الخلف .. قائلاً:

- ”يا بنتي“ .. ”الملافظ سعد“، وراعي إن منا كبار في السن
واجب عليك إحترامهم!

كانت كلمته كمستصغرِ الشَّرَرِ التي أضرمت الفوضى، فأنطلقت
الشتائم والاتهامات كقذائفٍ جاءت من كل حدبٍ تنصبُّ عليها،
جاء صوتها ناعماً صارماً:

- ”désolé, sorry“ .. آسفة خلاص مش أقصد، أعتذر!

قليلٌ من الصمتِ أبى أن يستمر .. قطعه صوتُها:

-أووووف Sauvage فعلاً .. مش عارفة هاقضي اليومين دول إزاي
بس!

تعالت الهمهمات من جديد كهبَّاتٍ ريحٍ تقتلُ أوتاد الصمت
المُهترئة

-إحنا اللي ربنا يصبرنا ..

تعالى صوت من أقصى اليسار

- ”هنجيب صبر منين بس من كلامها ده“.



ظهر الصوت الوقور ثانية:

- وبعدين!

- ”ما هو أنت سامع بتقول إيه كل شوية ترطن كلمتين مش عارفين بتشتتم ولا إيه!“

جاء الصوت الوقور هذه المرة أكثر حسماً

- ”من فضلكم إحنا بيجمعنا مكان واحد فلازم نتفهم ده، وحضرتك لو سمحتي راعي مشاعر الآخرين أو اسكتي خالص..“

-تغشى الصمت المكان، فكأنما نزلت عليهم السكينة، وبعد فترة ليست بالقصيرة خرج صوتها مُتململاً ..

-هل وصل بي القهر إلى أن أحدث نفسي incroyable غير معقول إحساس سخيف أن تجد نفسك في وسط اجتماعي لا يليق بك، فُرض عليك قهراً، أناجي نفسي بشظايا حنين لتلك الذكريات التي تُخاتلني كأنها نفحات نسيم عليل في ظل واقع يلفظُ حمماً بركانية، أفتقدُ تلك الأيام التي كنتُ فيها النجمة الأولى التي تُتداولُ صورُها المجلات والجرائد،

- ”بتربطمي بتقولي إيه؟ اتخمني يلا“

- ”هو صنفه إيه ده؟“ ثم بنبرة ممللة جراء سُبُل رفضهم لها خرج صوتها محمولاً على محفة الرجاء، بلا حياة ..

-أرجوكم اتركوني بمفردي، ألا يحقُّ لي مناجاة نفسي حتى ولو همساً، لحظة.. لحظة .. ما الذي جاء بي إلى هنا! ثم استدارت فجأة ..

-وأنت يا من تتمعن في قراءة تفاصيل حياتي بصمتٍ دون "إحم ولا دستور"، كأن حياتي أصبحت مَشاعاً.
نعم أنت ..

يا مَنْ تقرأ بتؤدّةٍ وحرصٍ ألا تفوتك كلمةٌ من السياق، مَنْ سَمَحَ لك بأن تفتح حياتي بهذا الشكل؟ وأن تُقَلِّبَ صفحات حياتي كأنها قصةٌ تُقرأ؟
قصة تقرأ...

لا بد أنني كذلك، لا غرور في ذلك، فالأحداث كلها تشي بأني الآن قصةٌ، عفواً على أسلوبِي الفجّ، لكن تقلُّبات الحياة هي من صنعت مني نصفاً من باريس والنصف الآخر من بولاق
لا بد أنني أصبحت الآن قصةٌ تُقرأ ولا مجال لي للنكوص أو الهرب، ورغم تحفظي على نشر تفاصيل حياتي الخاصة، فإن شغفي بالشهرة وبريقها سيجعل من قصة حياتي درساً خالداً للتاريخ ..
لذلك قررت أن أجعلك تلج حياتي

فأنت البداية، وربما كنت سبباً في نهايةٍ مُختلفة؛ لذلك سأروي لك قصتي ..

البداية من باريس ... بلد الجمال والموضة، حيث اكتسبت الأصل
والاسم الشهير،

كنتُ أحد اكتشافات العبقرى هوبير⁽¹⁾، الذي ما فتى يرسم
تفاصيلي بكل دقةٍ وامتياز، وأخذ يتفنن في جعلي الأجل والأروع،
متفردة بلا منازع، في القوام والتناسق والجمال، حتى فاقتُ
شهرتي الكثيرين، فأغرَم بي أحدهم

فكانت الرحلة من باريس إلى القاهرة

حيث البداية الحقيقية، فللقاهرة وقع آخر .

لا بد أنك تصفني بقلة الذوق وعدم فهم الأصول، لأنني لم أعرفك
بنفسي للآن..

ولكن التمس لي العذر، فتواتر الأحداث أفقدني شيئاً من لباقتي،
أنا يا سيدي العزيز "cravate" أو كما يقولون بالإنجليزية
Necktie وبلغتكم أنتم يطلقون عليّ رابطة للعنق

لحظة لا تمتعضُ ...

فأستُ كرافطة عادية، أنا أرقى أنواع الكرافطات في العالم وأجملها
وأفخمها

1- الكونت هوبير جيمس مارسيل تافين مصمم أزياء فرنسي أسس بيت جيفنشي 1952م

أنا كرافته جيفيشني

فرنسية الطابع، أصيلة المنشأ، جئتُ إلى القاهرة لأسكن شارع قصر النيل، وقد بدى لي واحداً من أهم شوارع القاهرة، رمزاً لإرث حضاري كبير، سُيِّدَ على جانبيه المباني والمتاجر، فتجد العصرية تتدثرُ بحنين الماضي، حيث المباني القديمة التي تُنافسُ في جودتها أكثر الفنادق والعمارات جمالاً.

البداية مبهجة، فمصر مشبوبةٌ بطباع خاصة، ولا تقلُّ عن باريس في جاذبيتها، ولم أشعرَ بغيرية، ولكن شعرتُ باختلاف الوسط، فما بين شارع الشانزلزية وشارع قصر النيل، الفارق كبير، اللغات تختلفُ لكن اللهجة هي من تصنعُ الفارق، فما بين تلك اللكنة الفرنسية المائعة .. واللهجة المصرية بونٌ شاسعٌ، إلا أن نوعية العملاء في تلك البقعة في مصر تفهمُ الجمال وتُقيِّمه، فما لبثتُ طويلاً حتى اقتناني شوكت بيه، وكان أنيقاً بحقٍ .. في ملابسه وعطره، يتلذدُ باختيار الكرافته التي تناسب ملابسه، فدولابه مرتعٌ لأنواع الكرافتات المختلفة بكل الماركات العالمية

لا بُدَّ أن يعترِكَ التشتُّ وعيناك تستعرضان الكرافتات ما بين الصوف والحريير والجلد والقطن والبوليستر، تشكيلةٌ عجيبة كأنك في محلٍ متخصصٍ للكرافتات فقط، تتنوعُ الموديلات ما بين القصير والعريض والرفيع...

إلا أنني كنتُ صاحبة حُظوةٍ، فقد اقتصرَ ارتداؤه لي مع بدلته
السواريه الكحلي، متفئناً في أن يُغرقتي ببذخِ بعطره الثمين.

-إيه رأيك؟

-رائعة .. كم أنت دائماً تسحرنني بذوقك الرائع وانتقاءاتك
المذهلة!

-شاهدتها مُصادفةً في فترينة المحل، فلم أقاوم سحرها، خاصة
وهي تواكب الموضة.

-أنت كفيل بصنع موضة تخصُّك يا حبيبي، فلم أر مثيلاً في
أناقتك، لكني أغارُ من تلك الأناقة.

-حسناً يا روحي، إذا لم تعجبك فساھمِلْها تماماً.

-لا بالطبع، ولكنك تجعلني أنا من يدفعُ ثمنها بغيرتي لتكون قريباً
لغرامي بك .

وهكذا تم دخولي بيت شوكت بيه برضا صابرين هانم، فكان
شوكت بيه يعرضُ على أن يرتديني في مناسباته الخاصة، فيقف
أمام المرأة بتأنقٍ .

يُصيَّبني بالدهشة بمحاولاته المتكررة في ابتكار ربطةً جديدةً،
فتارةً إنجليزية، وتارةً إسبانية، يفكني ويربطني مراتٍ عدة حتى
أوشك على الملل، وما يلبثُ أن يعود إلى ربطته الأولى خوفاً من
ضياع الوقت، مغرماً بالأناقة والتجديد، فما تظهر ربطةً جديدة

حتى يسارع لتعلّمها مُنْفَقًا الساعات في تجربتها حتى الإتقان، ذوقه راقٍ في اختيار الألوان، له نظرةٌ فنانٍ في تناسُقِها، فاخياراته مُبهرَةٌ، فالبدلةُ السوداءُ لا يُظهرُ ألَقَها إلا قميصٌ أبيضٌ مُقلمٌ، ولا يزيدُها بهاءً إلا تلك الكرافته الحمراء كحسناءٍ يافعةٍ تتدلُّ غرامًا، أما الكرافته الكحلية ذات النقاط البيج فهي الملكة المُتوّجة على البدلة التاكسيديو البيج حيث يتناغمُ معها القميص السماوي كلوحةٍ فنيةٍ.

-مش معقول يا شوكت، لابس رايج فين؟

-نفس السؤال التقليدي يا صابرين!

-طبعا، لازم اعرف الشياكة والأناقة دي لمين؟

-وبعدين معاكي..

-أنا برضه! كل يوم تخرج لوش الصبح وتقولى بعدين معايا؟

-وأنا مش هاضيع اليوم على نقاش بيتكرر زي اسطوانة مشروخة كل ما اخرج أسمعها، أنا خارج، سلام.

لا يعيبُ شوكت بيه إلا غرامُه بالنساء وسُغفُه بنظراتهنَّ المشتهاة، بلهفتنَّ عليه، وهنَّ يرين فيه فتى الأحلام، فملا مَحُه وسيمه، مَمشوقُ القوام، وله جَاهَةٌ اجتماعيةٌ جاذبةٌ، ولسانه لا يذرفُ إلا شهدًا فلا تجد امرأةً تحادثُه إلا وقد وقعت في شباكه.

الموسيقى الراقصة تنساب كيراقاتٍ تشقُّ طريقها للطيران للمرة الأولى، على دقات قلب هايدي، وهي تتخفى خلف الباب تترقبُ وقع الأقدام على السُّلم .. وكلما اقتربت الخطى هفا معها قلبها، نمطيةً واضحةً تصاحبُ خطواتٍ واثقةٍ أمام الباب

مع فتح الباب فوجئنا بإطلالةٍ ساحرةٍ لهايدي أتبعتها بقبلاّتٍ ساخنة لا تدري مُستقرّها، ما لبثت أن أمسكت به وساقته إلى مُرادها دون حولٍ منه ولا قوّة.

السهرُ لوش الصبح ديدان شوكت .. يُغازلُ هذه ويُداعِبُ تلك، والجميلة السمرء ذات الخضر في عينيها تتخذني طوقاً تجرّه به إلى غرفتها، والشقراء تتفنّنُ في جعلني قييداً لمعصميه. فكنت رفيقته إلى ملذاته، يستبشر بي ويرى فيّ الفأل الحَسَن.

إلا أن حرصه عليّ، استفزَّ زوجته، فشبَّ العدا بيننا، فما إن تعرّف نيّته في ارتدائي حتى يجنُّ جنونها، فتبرّم ذهاباً وإياباً .. تُبرطمُ بكلماتٍ متسارعة

إلى أين سيذهب؟ مَنْ سيُقابلُ؟

ما سرُّ هذه الكرافطة التي ما إن ارتداها حتى رجع منتشياً جَذلاً؟ وأصبح مجرد ذكر اسمي يُورثُ الخلاف في المنزل، فالسيدة صابرين تراني وجهه سُومٍ، فما إن اقتناني حتى انحلَّ سلوكه وانحرفاً!

وهو يراني تميمة حَظًّا، فأنا سببُ سَعْدِهِ وهنأهُ، ويربط وجودي
بالكثيرات من النساءِ الفاتنات اللاتي وقعن بشباكِه، وأنا مُحَمَّلَةٌ
بأوزارهنَّ، متشظية بين تقديري لمشاعرها وإحساسي بالذنب،
ونقمتي على شوكت في إسرافه في اللهو.

وفاضَ الإناءُ بما فيه، فاستيقظتُ على صراخٍ يُؤزُّ البيتَ أزا،
صابرين هانم تصرخُ بحرقَةٍ، وشوكت بيه يحاورها مُحاولاً
إرضاءها تارةً بالتنازُلِ وأخرى بالتبرير، يُذكرُها بقصة الحب
التي جمعتهما، وهي بين اللوعة والحنين، صوتها يتأرجح رجاءً
وَصُراخاً، فتقذف كل ما تجده في طريقها مُهرولةً إليه

يَسْتَجديها، فتطيشُ ضرباًتها على صدره، ثم ما يلبث أن يحتضنها
حتى تُتَكَرَّ عليه فعله فتبعده، فيحومُ حولها فتجهضُ محاولاته
باحتوائها بالصراخ في وجهه ممسكةً بدليل إدانته، وقد تعلق شيءٌ
من روج إحداهن علي،

يتلعثمُ، يُراوغُ، يُتَذَكَّرُ أي حجة تُعينه على الفَراهِ من قبضة اللوم
فلا يجدُ، وزوجته كالطير المذبوح، هائمة بين دلائل تُثبِتُ خيانتَه
وثقة ما فتى يُغذِّبها ويتعهدُها

فما تدري أغافية كانت أم مخدوعةً

ودار رَحَى النقاش بين لائمٍ وملومٍ حتى هدأت الأمور واستقرَّ الفؤادُ
المَكْلوم بتعهداتٍ عدةٍ منها بالتخلص مني بعد أن نالني سيلٌ من
الشتائم الصريحة والمُبطنة.

أرأيت ظُلماً وُعْتُواً كهذا؟

ما لي أنا حتى أُطردُ من الجنةِ مرتين؟ ما ذنبي إن كان صاحبي مُتَلَوِّناً، زير نساء؟! ما الوزر الذي فعلته حتى أُطردُ؟!

قامت صابرين هانم بوضعي في كيس بلاستيكي بجوار القمامة،
انتهى بي مقامي إلى القمامة! يا لعزیز قوم أدلته الظروف!

وفي المساء أتى عمّ محسن يتفحصُ القمامة، واكتشفني، وبعد
أن قلبني يمنةً ويسرةً، وكان فيَّ من الزاهدين، استقرَّ رأيه على أن
يُحضرني لأبنائه عسى أن يستفيدوا مني بشيءٍ، واستكمل مشواره
بعمرته الكارو^(١) متجولاً بين أكوام القمامة ينتقي من هذه، ويُغْرِبُ
تلك، حتى اختصَّ نفسه بمجموعةٍ من المُقتنيات تنوعت ما بين
طشت بلاستيكيٍّ، وبابوار جازٍ مفوت^(٢)، ومخدة مبقورةٍ في بطنها
وكراكيب أخرى لا تُسمِنُ ولا تُغني من جوعٍ.

وَصَلَ عمّ محسن إلى المنزل، فكانت خنفرة حِصانه كجرس
الإعلان عن عودته، خرج أبناؤه يهللون بقدمه.

-طلعت، عنتر، نزلوا الحاجات من على العربية. .

وما إن شاهدني طلعت حتى اختلط عليه الأمر بين كوني حبل
غسيلٍ أو حزامٍ بنطلونٍ، فأخذ يتمنطقُ بي، ثم ما لبث أن عَرَفَ
عني وألقاني على الأرض، وأخذ يعبُّ في الكراكيب ليجد ما يَمَلَأُ

١- عربية خشبية يجرها حسان.

٢- خربان.

عينه ويتضح وجه الاستفادة به.

تلقتني عينا طفلة مُشاكسة، عيناها غنيتان باللعب، شعرها مُجعدٌ
منكوش كلوحةٍ سيرياليةٍ ”ل جاك لوي ديفيد“^(١)، تُنافس بهيئتها
لوحته ”موت سقراط“^(٢) وقد تدلّى مخاطُّها من أنفها في منظرٍ
مُقزِّزٍ، وقبضت عليّ، وعيناها تتفحصانني لمعرفة مَنْ أنا وما
وظيفتي .

-شادية .. إنتي يا بت ..

سيبي الزفت ده وتعالى هنا بسرعة..

-”زفت!“ على آخر الزمن يُقال عني أنا ”زفت!“

صوتُ قدمي عنتر على الحصيرة المصنوعة من الخوص كصوتِ
عظام هشّة تهشُّمٌ مع كل خطوة تطوُّها قدمه، اقترب مني، وتلقاني
وكأنه عرف كُنهي وأصلي .. فصاح بأبيه:

يا با .. يا با .. إنت جبت البتاعه التحفة دي منين؟

ظَلَّ عم محسن ممسكًا بالقلّة، يصبُّ الماء على دفقاتٍ يسيل
سرسوبٌ منها على ذقنه وعُنقه كأنما يغتسلُ من عناءِ الطريق .. ثم
وضع القلّة على الحامل ومسح بكم جلابيته فمه وذقنه ..

لافظًا الكلام كأنما يختزنه ليخرج مرةً واحدةً:

١- فنان فرنسي من أبرز فنانين المدرسة الكلاسيكية.

٢- لوحة من لوحات الفنان جاك لوي ديفيد.

-البتاعه .. أي بتاعه .. تقصد؟ دي؟ .. أااااه لاقتها في كيس جنب الزبالة، هي دي بتاعة إيه يا عنتر؟

أخذني عنتر ووقف أمام مرآة طويلة بإطارٍ ذهبيٍ عتيقٍ، وقد كُسرَ حرفُها وهَجَرَها الإطارُ في بعضِ أجزائها، وأخذَ يلفُ الكرافتةَ حول عنقه، دون ربطِها، ثم يرجعُ إلى الخلفِ عدَّةَ حُطواتٍ ليرى نفسه، والظاهر أن السيد عنتر وَقَعَ في غرامي، وقد حاولَ مراتٍ عديدةً أن يربطني فما نَجَحَ إلا في أن يجعلني أرثي لحاله.

ثُمَّ دَقَّقَ فيَّ قليلاً وقد شاهد بقايا الروح الأحمر ملتصقة علي، فمطَّ بشفتيه متحسراً

-أيوه دي جرافتة الليالي الملاح والسهر لوش الصبح.

أوعز عنتر لزوجته بأن تغسل الكرافتة، ويا للهول! كدتُ أن أسقطَ صريعةً في طشتِ الفسيل الألمونيوم مع مزيجٍ من البطاس⁽¹⁾ والإيريال حتى فَطِنَ عنتر، فطلب أن أنقَعَ في الماء فقط، وبدأتُ رحلتي في دولاب عنتر المليء بالملابس البالية، لا يوجد كرافتة واحدة إلا .. "أنا"

لكني كلي ثقة أن عنتر سيعرفُ قيمتي وسيقدِّرني كما أستحقُّ.

-اخرسي بقا .. كل ده كلام كلام .. صدعنا.

-ما يُضيرُكم أن أتحدث، أن أفضِّضَ، كلكم بقايا ملابس قديمة،

١-مادة مبيضة للفسيل.

تتفاوت الرُّقع في أجسادكم، وبُقع الألوان تتجلى كالمصابين
بالْبُهاق.

قاطعها صوت أحدهم:

-سُتجربِي البُهاق مع أول غلِسةٍ مع البطاس يا مغرورة.

-دعك منهم..

بدأ عنتر يتأنقُ عندما يقوم بارتدائي، فساق الحظُّ له بدلة كحلية
كالجديدة .. ماذا؟ إنها بدلة شوكت بيه أيضًا!

واشترى قميصًا أبيضًا رائعًا، وغدا يمشي في شوارع وسط البلد
مُعلنًا خروجه من هُوِيته إلى هُوِيَةٍ جديدة .

حتى استهجنَ الجميعُ ذلك، وعلى رأسهم زوجته ”مُهجة“، فعاد
عنتر من سهرته اليومية ببِدلته وقد أعياه اللُّفُّ في الشوارع، فنزع
عنه البدلة والكرافطة ورماها جانبًا .. وطلب إلى مُهجة أن تسخُنْ
له المياه ليغسلَ قدميه

أشعلت مُهجة البابور على حلّة المياه الساخنة، وقد استبدَّ بها
هاجسُ حال زوجها، وكيف تغيّر بعد هذه الكرافطة الشؤم التي
بدّلت حاله من حالٍ إلى حال .

تدفق البابور بحرارة النار لتسري الحرارة في أنحاء الحلّة، المياه
على وشك الغليان، صاحت مهجة:



-شادية إحقيني بقماشة أمسك بيها الحلة بسرعة يا بت ..

بحثت شادية بسرعة فلم تجد سوى تلك القماشة الصغيرة التي ما
زالت لا تفهم وظيفتها

القماشة الصغيرة ..

ما إن رأتها مُهجة حتى اتخذتني قُرْبانًا لغسل قدمي عنتر وسلوكه،
فما عبئت بالنار تُمسك جسدي وأنا ألتوي وأزوي حتى انتهى إلى
سمعي رُدُّها على عنتر عند سؤاله عني:

-وماله يا حبيبي

خذت الشر وراحت!









لغيم الأسود



لا تكادُ ترى عقاربَ الساعةِ الا ”طشاشاً“، يجاوزُها صورةٌ
أبيض وأسود بإطارٍ ذهبي للرئيس السابق محمد
نجيب طوّس الزمن ألوانه، تَصْطَفُّ تحتها صناديقُ
المياه الغازية الزجاجية وقد علاها العفْرةُ، وفوقها رف
خشبيّ مثبتٌ على كوابل حديدية لازال يحتفظُ بلونه
الاسودِ وإنْ تَقَشَّعَ الدهانُ لِيُبْدِيَ سِوَةَ الحديدِ ظاهرةً
للعيان، يقبَعُ عليها راديو خشبيّ متهاكٌ، وقد أضحى
رمزٌ لزمنٍ جميلٍ قَضَى ...



الساعة الواحدة فجراً .. لا شئ يُعبّر عن الوقتِ إلا ساعة رخيصةً
غَبَّشَ زجاجها دخانُ المعسلِ وتَحْمَشَ من جرّاء سقوطها مراتٍ
عديدةً وقد ثَبَّتَتْ في منتصفِ الحائطِ مائلةً .

لا تكادُ ترى عقاربَ الساعةِ الا ”طشاشاً“، يجاورُها صورةٌ
أبيض وأسود بإطارٍ ذهبيٍّ للرئيسِ السابقِ محمد نجيب طوّس
الزمن ألوانه، تصطفُ تحتها صناديقُ المياهِ الغازيةِ الزجاجيةِ
وقد علاها العفْرةُ، وفوقها رفٌ خشبيٌّ مَثَبَّتٌ على كوابلٍ حديديةِ
لازال يحتفظُ بلونهِ الاسودِ وإنّ تَشَعَّعَ الدهانُ لِيُبَدِّيَ سَوَةَ الحديدِ
ظاهرةً للعيانِ، يقبعُ عليها راديو خشبيٌّ متهاكٌ، وقد أضحى رمزاً
لزمينٍ جميلٍ مَضَى .

تَحَلَّلَ دهانَ الجدارِ تشبيحاتٌ صفراءٌ تدلُّ على زمنٍ انقضى، فترك
آثاره على الدهانِ الزيتيِّ.

هناك في زواياِ القهوةِ:

تزامنَ ثلاثة اشخاصٍ في طاولةٍ، وقد إقتربَ أحدهم من رأسِ
الآخر هامساً:

-بس لا... أنا كده مش أخذت حقى .. مش ده اللي اتفقنا عليه !

رَجَعَ الآخرُ برأسِهِ إلى الخلفِ وأسندَ ظهره على الكرسيِّ مُلوحاً
بذراعه وقد رَفَعَ صوتَه:

- "هو كوده .. إذا كان يعجبك .. وده اتفاقتا الجديد أيه رايك ..؟"

ضاقت عَيْنَا الجالسِ أمامه،

- "لا طبعا مش موافق... حتى فين ؟"

"يعنى إيه حقك .. حقك وصل وانتهى"

"يعنى إيه، أنا اتنصب عليّ .."

فجأة ...

لَمَعَ نَصْلٌ مَطْوَاةٍ^(١) "قرن غزال" في الهواءِ بسرعةٍ وبحركةٍ
استعراضيةٍ قامَ الثالثُ بتمريرِ المَطْوَاةِ عَلَى وجهِ الجالسِ أمامه
مكرِّراً نفسَ الجملةِ

- "هو ده اتفاقتا الجديد إذا كان عاجبك ؟ إيه قولك بقا ؟"

بلعَ الأولُ ريقَهُ بصعوبةٍ وقد شَخَّصَتْ عيناه وشحبَ لونه متهتأً :

- "يعنى إيه ..."

يتنصب عليا

عيني عينك ...

طيب والد "

١-سكين.

مَدَّ الشَّخْصُ الثَّانِي يَدَهُ لِيُمْسِكَ مَعْصَمَ الْأَوَّلِ بِقُوَّةٍ مُوجَّهًا نَظْرَهُ
إِلَيْهِ قَائِلًا بِصَوْتٍ هَادِيٍّ:
- ”إِنْتَهِينَا يَا بَيْنَا يَا رِضَا“ .

سَرَّتْ قَشْعِرِيرَةُ غَضِبٍ فِي جَسَدِ رِضَا، وَقَدْ صَبَغَ الْغَضَبُ مَلَامَحَهُ
وَبَرَزَتْ عُرُوقُهُ وَكَأَنَّمَا الشَّيْطَانُ يَنْزِعُهُ لِيَقْتَنِصَ حَقَّهُ فِي غِيَابِ
تَكَافُؤِ الْقَوَى .

هَمَّ رِضَا بِأَنْ يُمْسِكَ بِتَلَالِيِبِ الْأَوَّلِ؛ إِلَّا إِنَّ نَصَلَ الْمَطْوَاةَ الَّذِي
غَزَّ جَنْبَهُ جَعَلَهُ يَتَرَاوَعُ وَيَرَاوُدُ نَفْسَهُ عَنْ ذَلِكَ، وَشَيَّعَهُ الْأَوَّلُ بِنَظْرَةٍ
شَمَاتَةٍ مَعَ ابْتِسَامَةٍ سَاخِرَةٍ، قَائِلًا بِاسْتَهْزَاءٍ:

”مَا يَأْكُلُهَا إِلَّا الشَّاطِرُ يَا ... يَا شَاطِرُ“

خَرَجَ رِضَا وَقَدْ تَسَرَّبَتْ الدُّنْيَا بِالظَّلَامِ فِي عَيْنَيْهِ، يَرَجُلُ صَدْرَهُ
كَمَصْنَعِ فَحْمٍ، رَكِبَ سَيَارَتَهُ الْأَجْرَةَ وَدَلَفَ زَمِيلَهُ عَنْ يَمِينِهِ فِي
صَمْتٍ وَكَأَنَّ الْأَمْرَ لَا يَعْنِيهِ يَتَأَمَّلُ الطَّرِيقَ فِي بَرُودٍ.

مَا هِيَ إِلَّا لِحْظَاتٌ وَبَدَأَ عَلَى رِضَا الْأَضْطْرَابُ وَهُوَ يَبْحَثُ عَنْ عُلبَةِ
سَجَائِرِهِ وَيَدَاهُ تَنْتَهِكُ حَرْمَةَ السَّيَارَةِ، فَتَكْشِفُ كُلَّ مُسْتَوْرٍ يَنَافِسُ
سُرْعَتَهَا زَفْرَاتُ صَدْرِهِ وَقَدْ قَضَى وَقَارُهَا وَبَلَغَ الصَّبْرُ الْحَلْقَوْمَ

- ”وَوُوفَ هِيَ فَيَنْ ... دَهْ وَقْتَهُ دَهْ ؟!“

التقطَ زميلهَ علبةَ السجائرِ الواقعةَ على أرضيةِ السيارةِ ليناولها
لهُ بُودٍ ظاهرٍ :

- ”دَحْنُ يا صديقي لا تجعلَ الموقفَ ينكِّدُ عليكِ حياتك ..“

- ”إنت بتقول إيه ..؟“

كيف وقد اغتصبَ حقي وفهرتُ دونِ وجهِ حقٍّ، ألمَ ترَ ماذا فعلَ
معِي ؟

وأنت ... نعم أنت لماذا لمَ تتدخلْ ؟ لِمَ لمَ تَشُدَّ أزرِي ؟ أئى
صاحبِ أنت ؟!

-يا صديقي بعضُ المعاركِ الانتصارُ يتحققُ بالهزيمةِ، ويتكلَّلُ
الفوزُ بالانسحابِ، وأنا لمَ أترددُ أن أشدَّ أزرَكَ وأنصركَ بأنْ
دفعتُ عنكَ بلاءَ المطوأةِ وشبَّحَ عاهةً مستديمةً تحفَرُ وجهَكَ أو
يرتسمُ بها مَعْلَمًا على جسدِكَ

وبعد ذلك لا زلتَ تناشِدُنِي النُّصرةَ!

نَفَتْ رضا دخانَ السيجارةِ كغنيمةٍ رماديةٍ ملأتَ السيارةَ، وأطرقَ
صامتًا.

قَطَعَ الصمتَ، همهمةً صديقهِ ورأسهُ يراوحُ بين الشبَّاكِ عن يمينه
ووجهُ رضا عن يساره .. وهو يُتمِّمُ:

- ”زبون على الطريق .. أليس كذلك؟“.

أَنْظِرْ .. هُنَاكَ سَيِّدَةٌ عَلَى الطَّرِيقِ .. يَمِّمْ وَجْهَكَ نَحْوَهَا ...

ها هو الرزقُ جاءك يسعَى...

ارتسمَ شَبْحُ ابْتِسَامَةٍ خَفِيفَةٍ عَلَى وَجْهِ رِضَا وَاتَّجَهَ نَحْوَ السَيِّدَةِ
وَتَوَقَّفَ لِیُرِّخِيَ صَدِيقَهُ الزَّجَاجَ وَيُنَادِيهَا :

-إلى أين؟

-المعادي ..

-”مش طريقي، لكن عشان خاطرک نتجه إليها .. تفضلي.“

التفتَ قَدْرِي إِلَيْهَا مَخَاطَبًا:

-أترغبينَ بِالرَّكُوبِ فِي الْأَمَامِ؟

رَدَّتْ الْمَرْأَةُ لَا .. كَمَا أَنْتِ.

ثمَّ أَعْقَبَ حَدِيثَهُ:

-”هتدفعي كام؟“

”المشوار ده مش أقل من ..“

قَاطَعَهُ رِضَا:

-”ما تدفعينه، لن نَشْرَطُ عَلَى الزَّبُونِ كَمَا نَ.“

إبتسمت المرأة ودلّفت إلى السيارة، حدّ رضا وجهة السيارة إلى
عنوان السيدة وما كاد يتحرك بضعة أمتار ..

حتى جاء صوت السيدة طالبًا الوقوف على جانب الطريق، فقد
لمحت سيارة قريب لها في الجوار،

طالعتها قدرتي من مرآة السيارة، ثم التفت بجذعه

-ولكننا تحركنا بالفعل ..

أجابت: لم نتحرك ولكنك هممت، والفرق كبير يا أسطى..

صاح قدرتي بصوت جهوري:

-هذا لا يصح لقد توقفتنا لك فلا بد لك أن تحاسبينا على الأجرة
كاملة، ليس من ذنبنا إنك وجدت سيارة أخرى ..

نظرت إليه في المرآة من أعلى إلى أسفل، وتركته دون رد، وقد
تمنطقت الترفع.

التفت رضا إلى صديقه متنهداً:

-ألم أقل لك يا صديقي .. ”أنا فقري؟“

الرزق يعافني، حتى إذا أطلت عليّ بوجهه فكأنما ...

تمتم قدرتي في بطءٍ وهدوءٍ ..

-خير.. لا بد إن ذلك خير.

-أى خيرٍ في أن أظل فقيراً مُدَقِّعاً، تتكاثر الأقساطُ عليّ كما تتكاثرُ
السباعُ على الفريسة!

أى خيرٍ في أن لا أجد الكفافَ لعفافِ نفسي وأسرّتي وأن
تحاصرني الديونُ كشخصٍ تعلقَ في ناطحةِ سحابٍ أو أحاطَ به
السيلُ من كلِّ جانبٍ حتى كادَ أن يغمره!

العوزُ مرٌّ يا صديقي، الفقرُ الذي يجعلك تُغالبُ نظرةَ الحرمانِ،
بأن تستحضرَ كلَّ لحظاتِ الرضا في حياتك كشريطٍ متوالٍ من
مسلسلٍ قصيرٍ جداً، لا تفتأ تنتهي صورهِ قبلَ أن تبدأ.

التفتَ إليه صاحبه مستكراً:

-أنت قتلتها يا صديقي:

الرضا .. إنَّ كلَّ مشكلتك في الرضا، أنت ناقمٌ على ما لديك
ومتطلعٌ لغيره ؛ ليكنَّ لك نصيبٌ من اسمِكَ، فأنت لا تُعيرُ ما في
يديك الاهتمامَ، لأنَّ كلَّ طموحك ورغبتك في غيره

أنت في نظري كقصّة الشخصِ الذي حطىَ بالدنيا وهو لا زال
معلقاً بأكلةِ كبابٍ عند جاره.

فرمّل .. قدرى سيارتهُ بحدّةٍ، وكأنما بهتتهُ التشبيهُ؛

- ”أى أكلة كباب؟! التي تتحدث عنها، وأى حظٍ من الدنيا ذلك الذي نعمتُ به“.

أنا لا أتذكرُ يا صديقي أنّ الغنى أطلَّ بوجهه المشرقِ على بيتنا، أنتَ تعرفُهُ ذلك البيتُ المتهدّمُ الذي جاز لنا بعدَ وفاةِ جدتي لوالدي، ولولا - توفيقُ اللهِ - لَكُنَّا الآنَ نعيشُ في الشارعِ، بيتٌ قديمٌ متهالكٌ من أيامِ الملكية تجاوزَ عمره المائةَ عامٍ، تسري فيه الرطوبةُ والزمنُ، ليخيّلُ لك أنك في فيلمٍ يدشنُ لبدايةِ السينما، وكان حظنا من معاشِ والدي الذي أفنى عمره في شركةِ الغزلِ والنسيجِ بضعِ جنيهاتٍ - لا تُسَمَّنُ ولا تُغني من جُوعٍ -.

وأُمِّي التي انكفأَ ظهرُها تبيعُ من نافذةِ المنزلِ بعضَ المناديلِ ولوازمِ المنازلِ؛ كبابٍ للرزقِ، ”وأهي نوايةِ تسندِ الزير“⁽¹⁾

أنتَ لستَ بغريبٍ يا قدرِي .. فعائلتكُ تُلازمُ عائلتنا ولكنْ وكأنما قدَ فاضَ الإناءُ من القدرِ، ولم أعدْ اتحملُ رائحةَ الفقرِ، ولونه وطعمه .

تحدثُ قدرِي بصوتٍ هاديٍّ

- لكن الرزقُ ليس كله مالٌ.

فقاطعه رضا .. أنا لا أطلبُ المالَ للتبخُّتِ أو الفشخرة، بل لِسِدِّ العوزِ.

1 - مثل شعبي مصري يعني شيء قليل يعين.

كان رضا يتحدث وقد أطلق نظره خارج السيارة، دون أن يلتفتُ
إلى قدري.

ما لبث أن أطفأ سيجارته، ليقومَ بالتقاط سيجارةٍ أخرى من علبةِ
السيجائر، متأملاً سحابات الدخانِ تتصاعدُ إلى السماءِ، كأنما
روحٌ أُعْتِقَتْ من سجنِ الجسدِ إلى آفاقِ الحريةِ السماويةِ.

-هل تعرفُ يا قدري إن الفقرَ يغطي فضيلةَ الفقراءِ، بينما يسترُ
المالُ رذيلةَ الاغنياءِ، نحن في عالم لا يؤمن بك إلا إذا كنت
مسنوداً، ولا يُعِيرُكَ اهتماماً إلا إذا أنعمَ عليك بكرتِ توصيةٍ،
أو تليفون وصايه...

-ولكن يا رضا .. تَذَكَّرُ نعمَ الله الأخرى عليك.

- أرجوك دَعْ عنك ذلك، أنا لا أُنكِرُ أنعمَ الله عليَّ في صحتي
وأهلي وأصدقائي، لكن ذلك لا يمنُّني أن أسألَ بكلِ حرقةٍ حول
ذلك التوزيع اللعادل للثروة!

أين العدل في أن يحكمَ بلدٌ عريضاً عددٌ محدودٌ من العائلات؟!

أين العدل في أن تبلغَ ثروة ثلاثة من أغنياءِ هذا العالمِ نتائجَ قيمةٍ
دخلِ مجموعة من الدولِ مجتمعةً!

أين العدلُ أن نجدَ أناساً لا تجد ما تفعله بمالها وآخرون لا يجدون
ما يسدُّ رَمَقَهُمْ؟!

يا صديقي ...

العالمُ اليوم أصبح جزيرةً أغنياءٍ يُحيطُ بها بحارُ الفقراءِ.

- هذا نصيبهم من الدنيا يا رضا .. ولكل مجتهدٍ نصيب.

قَهقه رضا بصوتٍ عالٍ، ثم فَتَحَ بابَ السيارةِ ونزلَ منها وقال ..

- هذا كلام من سلموا عقولهم للفضائيات، تَبَثُّ فيها ما تشاءُ، الأمرُ ليس له علاقةٌ بالحظِّ بل علاقته بالطمع والجشع والتنافسِ على احتكارِ الثرواتِ، وما تَبِعَ ذلك من انظمةٍ تمنحُ المستغلين والمحتركين فرصةً لزيادةِ أموالهم، واستغلالنا نحن لنكونَ عمالَ تراهيل، تارةً باسمِ النصيبِ وتارةً باسمِ القدرِ.

- ولكن هذا نظيرُ اجتهادهم ..

-أبدأً نظيرُ علاقاتهم.

-نظير اجتهادهم وعلاقات ذويهم، هكذا الدنيا يجبُ أن تتركَ لأولادك ميراثاً يستندون إليه .

رمى رضا السيجارة وضرب كفاً على كفٍ قائلاً:

- لا حول ولا قوة الا بالله- هذا ميراثٌ من الغباءِ والسطحية والتدجين يا قدرى، لو وُزِعَت هذه الثروات لم بقي فقيرٌ في العالمِ إن خيرات الله وعطاء السماءِ كفيلاً بأن يجعلوا العالم في فيضٍ من العيش والسعة.

قطع حديثهم صوت صرير فرامل سيارة فارهة تتحرك بسرعة لتتجاوز المارة غير عابئة بانتشارهم المتناثر على قارعة الطريق.

- "بالراحة يا عم .. انت ما بتشوفش.."

"ماهو أكيد امك اللي شريهاالك"

أعقب ذلك صوت المكابح وهي تأن تحت وطأة الوقوف المفاجئ، كادت لتصدم أحدهم، هم أحد الشباب بالركض نحو السيارة ذي الزجاج الاسود ليخبط بكفه على جسم السيارة زاعقاً بصوته ..

- "أنت أعمى ما بتشوفش .."

ترجع السائق إلى الخلف، وأخذ يشتم ويسب، ثم انحرف ليأخذ طريقه مرة أخرى مسرعاً.

كان المشهد سريع التفاصيل، مجرد ما أن تجمع الناس... أنفضوا.

التفت رضا إلى قدرتي قائلاً:

- هذا مثال واضح يؤكد نظرتي يا صديقي .. أتعلم أين الخلل في ذلك ؟

- لا أعلم ..

- الخطأ في الخلفية التربوية في عالمنا التي تجعل الناس تنح في تربية أبنائها على الأنانية والذاتية، فينتج جيل منعدم الإحساس بالآخر.

يعتبرون الباقيين حشراتٍ أو كائناتٍ اختارها -الله عزوجل-
لخدمتهم، ويعدُّ حق التمييز هو شغلهم الشاغل .. فتراه يختصرُ
العالمَ في نفسه فحَسَبَ.

-أرى إنك مارست نفس ما تدّعيه للأخرين من تسلطٍ ، فأنت لا
تري من الرأي إلا رأيك!

كيف تنتقدُ الآخرين على ديكتارويتهم وأنت تمارسُها في حياتك
ومفاهيمك !؟

إنك تُطَلِّقُ الأحكامَ والتفاسير على رسلها دون أن تسمحَ لأحدٍ
بالنقدِ ، وكأنما كلامك أحكامٌ مُصدقة لا مجال فيها للاستئنافِ
أو النقضِ.

لا تُسلمَ نفسك للغيمِ الأسودِ في طريقةِ تفكيرك، وتغلَّقْ على
مفاهيمك وحسب.

-أتذكر يا قدرتي القصة التي كنا نقرأها ونحن صغارٌ، عن تلك
القرية الصغيرة التي أبدعها الرجلُ المهمُّ، يُسرِّبُها الحزنُ في
عباءةِ البؤسِ، وتطلُّ عليها الكآبةُ في كل ملامحها، فالشوراع
شاحبةٌ والأصوات مكتومةٌ، واجمه، والأرضُ كالحجةِ غضباً، وقد
أعتادوا كل يوم أن يقفوا في الطوابيرِ خانعين، في انتظارِ ما
تجود به يد المشهورِ من منحٍ وهدايا، ممثلة تارةً في كلبو جرام
من الأرزِ أو السكرِ أو عبوةٍ من زيتٍ أو أكثر، بينما تثمرُ الأرضُ
بالخير وتغدقُ السماءُ بالفضلِ.

فيأتي الرجلُ المهمُّ ليعلنَ إنه رئيسُ الفقراءِ وإنه خرج من رَحْمِهِم، وإنه ترأسهم لأنه يشعرُ بهم، والوحيد القادرُ على انتشالهم والرفع من معاناتهم .

وبدأ الرجلُ المهمُّ خطته ..

ليُعيّنَ الفقراءَ، ويأخذُ من الأغنياءِ ويحاربُ الفسادَ، وتظهرُ الأيامُ ما أضمره ويسقطُ عنه قناعُ علاء الدين، ليظهرَ بزي شَهْبَنْدَرِ التجارِ، فتحوّلتَ البلدُ إلى سوقٍ لتجارته، وتحوّلتَ رئاسته إلى جنةٍ لأحبائه ونازٍ لأعدائه، وأنطلقتَ المشاريعُ في كلِّ حدبٍ وصوبٍ تدعّمُ الرجلُ المهمُّ، ويفردُ الإعلامُ باسمِ الرجلِ المهمِّ، وتحوّلتَ القريةُ بأسرها لأحدِ أملاكِ الرجلِ المهمِّ.

وتحولَ الناسُ من أحرارٍ إلى عبيدٍ، ومن مخدومٍ لخدّام، يَرَجون ودَّ الرجلِ المهمِّ ويسعون لكسبِ رضاه، وتمّت القصةُ بأنَّ الأحرارَ أصبحوا عبيداً وإنَّ الحاكمَ أصبحَ محكوماً.

ضرب قدري كفاً بكفٍ...

-الآن رجعتَ وأسقطتَ الأمرَ بشكلٍ آخر، في استحضارِ لفكرة أنك الأمرُ النهائي، صاحبُ الفكرِ الصحيح، هذه القصةُ ليست بالضرورةِ تفسيراً منطقيّاً للأحداثِ، وإنما إشارةٌ لبعضِ مراحل التاريخِ في بيانِ توزيعِ الثروة.

-قدري .. أرجوك لا أحبّ هذا الأسلوبَ من النقاشِ، أنا أطرُحُ

عليك رأيي، فلا تدحضه بالسخرية وابتكار أساليب لعدم الرد
المباشر على الأمر.

قاطعهم متسولٌ يلبسُ جلابيةً مُهلهلةً، ويمسكُ بولدٍ صغيرٍ يطلبُ
الرزق... ..

- ”حسنة قليلة تمنع بلاوى كثيرة، ساعدني الله يساعذك، معايا
ثلاثة أولاد غيره، والحياة غالية وكل حاجة مولعة زى ما انت
شايف“

أخرج رضا بعض جنيهاتٍ من جيبه وأعطاهما إياه بعجلةٍ ثم التفت
إلى قدرتي مشيراً ..

- هؤلاء يا قدرتي هم ضحايا المجتمع، هم زملائنا في الفقر،
لذلك نحن أولى الناس إحساساً بهم وتلمساً لاحتياجاتهم لإننا
منهم وهم منا.

- يا صديقي ..

الرزق موفورٌ من الله لخلقهِ وأنت في بطنِ أمك، ولو راجعت
تاريخٍ من تصفهم بالفنى ستجدُ إن منهم أصحاب تاريخٍ من
العصامية، عضوا على التراب ليصبحوا ما أصبحوا، والأمثلة
كثيرة، ولكن لكل شخصٍ منا أسلوبٌ يرتكنُ إليه، هناك من
يصرفُ وقته وجهده في ابتكارِ شماعَةٍ يعلقُ عليها كل آماله، وهو
بذلك مرتاح البال، خالي الوفاق، فقد وجد مايركنُ إليه ويعهدُ

إليه بمشاكله ونقصه وهوان إرادته.

ومنا من يعرف الأسباب، ويجتهد لغيرها، ويصنع لنفسه عالماً
آخرًا، واترك لك الحكم يا صديقي في أيهما أنت ..

-أتعلم صدقاً لا أعلم!

هل أنت فعلاً صديقي أم أنت قَدْرِي !

-أني لأرى الفقرَ شخصاً عاهدنا على أن لا يفلتنا، فلا يوجد
شخصاً واحداً في عائلتنا ”عليه الطلى“⁽¹⁾، وله ذكرى بأن
عرف الغنى وعرفه، بل كل عائلتنا تئن تحت لظى الحاجة والعوز،
وكأنما أخذ الفقرُ علينا عهداً وأبى أن يخلفه، وقد ورثَ عهده
لذريته وأخذ منهم العهدِ بالتطبيق، فتراه يظهرُ لنا في صورٍ
مختلفة، تارةً باسمِ الخيرِ وأخرى باسمِ عدمِ الحرصِ، وتارةً
باسمِ العوزِ والحاجة، والنتائجُ في النهايةِ ...

إننا والفقرُ أصبحنا أصدقاء.

-ضحك قدري على هذا الوصف .. لا أعتقدُ أنكم أصدقاء

”لكن واخدين بعض عن حب“

١- شخص له وضع.



-أُعرف يا صديقي .. كأن كلامك وقع في قلبي، فظننتُ في نفسي
أحد من تعاهدوا على أن لا يفتوك

-فأصبحت لا أعلمُ .. هل الفقر أنا

أم قدرُك!







عُجْتُ تَحْتَ الرِّدَى



كُنْتُ أَتَوَقَّعُ ذَلِكَ فِي أَى لَحْظَةٍ، لَكِنَّهَا لَمْ تُمِهِّلْنِي لِلْفَرَحِ
فَأَصَابَنِي الْإِحْبَاطُ وَتَكَالَبَتْ عَلَيَّ ذِكْرِيَاتٌ شَبِيهَةٌ فَهَذِهِ
لَيْسَتْ الْمَرَّةُ الْأُولَى .. فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا مِنَ الرَّضُوحِ لِرَغْبَتِهَا ..
وَامْتَلَأَ ذِهْنِي بِخَوَاطِرَ شَتَّى مِنْ بَيْنِهَا الزَّوْاجُ بِأُخْرَى ..



غزة بيوم الانتصار لغنيها وهنيها

زغرد يا رصاص الثوار

ارض الشهدا وحيها

وغزة هي البداية

والثورة جاية جاية

بالقدس بنرفع رايه

ورح ترجع لاهليها

صوت ميس شلش .. كرزاذِ المطر الذي يُحي القلوب العطشى
لفرح الانتصار، كجدائلِ أشعة الفجر التي تَنبُلُجُ من عباءة الليل
فتشرقُ في أنفسنا بالأمل الذي نتعلَّقُ به في ثوب الحياة.

-ويعدين باسل قصّر صوت الكاسيت شوي .. مو معقول مو عارفه
أدرّس الاولاد!

-شوقصر ... بدنا نعليه أكثر ما نقصر، لوفيني بعليه ليغطي على
أزير الطائرات و صوت البراميل المتفجرة ..

-رجاء .. مو وقت ثورة و تحدى، بدّنا نشوف شغلنا الله يرضى
عليك ..

.. نظر إليّ باسل للحظات، ورفع صوت المسجل أكثر وأكثر وأخذ يدبك^(١) على أنغام موسيقى أغنية ”ميس شلش“^(٢) كأنه يستعرض ما تبقى من رغبة بالحياة داخله، يتخذ من صوتها سلاحاً يواجه به الموت.

كان باسل مزيجاً من صفات متباينة متنافرة، فتراه في بعض الأحيان أرعن، يصبغ التهور أفعاله، و عندما أتأمل كلامه وأفعاله، يخاطلني التيه بأني رفيقة لحكيم زمانه، لكن الصفة التي لم يختلف عليها اثنين هي رجولته في تحمّل المسؤولية، في وقت باتت المسؤولية إرثاً شديداً الثقيل ينفر منه القريب والبعيد

الناس تتغير، والقيم أصبحت مرنة، والأخلاق أصبحت كالحظوظ، فكل يأخذ منها على قدر حظه، وجاءت الحرب كالمخّل يُغربل الناس من المظاهر، فتطرح أفتعهم، فاقتربت الناس من بعضها وأصبحنا نعرف بعضنا أكثر ..

تداخلت الهموم، وامتزجت الحاجات، وتوارى السؤال خلف العلم بالحال.

تصنع الحرب فينا ما لا تصنعه الأعيب كبير السحرة، فقد يسبر أغوارك بيديه الفارغتين وهو يدور حول قصص فارغ، يتخلله الهواء من كل جانب، وما يلبث أن يغطيه ثواني ليكشف بعد ذلك عن أسد

١-رقصة فولكلورية شعبية منتشرة في بلاد الشام تمارس في الاعراس والاحتفالات.

٢-منشدة اسلامية فلسطينية تدور اناشيدها حول فلسطين والانقراض

يزأر، أما في الحرب فكل من عاشرتهم وجمعتكم لقمةً واحدةً
تقاسمتوها بينكم؛ تراهم دون أقنعة وقد داسوا على ما اجتمعتم
عليه من قبل في لحظةٍ واحدةٍ

وكأنما حلَّ يومُ القيامةِ، فترى الجميع يصيحُ نفسي ... نفسي،
الحرب تكشفُ معادن البشر، فيظهرُ المعدن الأصيل لامعاً
كالماسةِ بكَرٍ وسطِ رَحْمٍ من كسر الصخور، وتكشفُ رَنخ المعدن
الردئ، وصدأ لونه، وعفن رائحته على بعد أميالٍ، فلا يُغرنك من
يكثرُونَ التَشَدُّقُ بالقيم والمبادئ والأخلاق، فعندما تأزفُ الآزفةُ
تجدهم أولَ من يلفظُها ويتكبرُ لها، كأنهم حديثُ عهدٍ بها.

دوي المدافع يكدُ يصمُّ الأذان، وأزيز الطائرات يروغُّ القلوب،
ومشاهد القتل والدمار شريط يتجددُ أمام أعيننا كل يوم، جميعنا
يفكر بالخلاص، ولا خلاص مما نحن فيه إلا برحمة ربِّك، إما
بالهربِ من جهنمٍ إلى بلدٍ يعطيك الأمان ...

مقيت أن تفقد الأمان في وطنك وأن تتجرعُ الخوفَ والرعب كل يوم
لأنك تقطنه، الجميعُ يعتنقُ فكرةَ الهربِ، علَّها تثمرُ بتصورٍ واحدٍ،
والعادة تقتضي الذهاب إلى تركيا أولاً، ومن ثمّ تدبير أي وسيلة
تهريبٍ إلى أوروبا، ولكن ذلك لم يكن متاحاً إلا لمن يملكون المال،
حتى في الحياة والموت ..

تُثْمِنُ الأرواحَ بالمالِ والقدرة، أصبحنا بضاعةً مزجاةً؛

من يدفع يُعتقُ، ومن لا يدفع تَرَكَلَهُ وطأةُ العوز، ليكون هدفاً متاحاً
في مرمى النار.

حتى الحياة تُشترى ..

جاهدتُ أنا وباسل في تديير المبلغ، فبيعنا كل ما نملك، حتى شبكتي
لم يبق منها إلا فردة حلق، آثرتُ الاحتفاظ بها لتكون ذكرى إننى
في يوم من الايام كان لي شبكة زواج، وبعد كل ما فعلنا، تَجَمَّع معنا
مبلغٌ لا يكفي إلا لتهريب شخص واحد، كنتُ فرحه بذلك كثيراً،
فهروب باسل سيكون دافعاً له ليأتي ويأخذنا

وإن كان الفراق صعباً

ولكن العيش دون أملٍ أصعبُ.

واشدد النقاشُ والجدلُ فكل منا يرى الأمل في الآخر، باسل يرى
الأمل في حمايته لنا من نوائب الحرب، ونحن نرى في هروبه طوق
نجاةٍ، قد يتأخر لكنه سيأتي يوماً ما.

- ما أدراك يا حبيبتي أني قد آتي في الوقت المناسب؟

أما نعيش مع بعض أو ليكن ما يكون!

فأما حياة تُجملها ضحكات الأولاد وابتسامتك، أو غربة يُدْفء
صقعيها جَمَعتنا

فالحياة أنتم، ولا حياة دونكم،

فإما أن يأتي الحظُّ فنهربُ معاً، وأما المكوث هنا وأملنا
بالله كبير.

استطاعت جارتنا ”رانيا“ في تلك الأحيان أن تُدبرُ المبلغَ المطلوب، ورغم تحفظ باسل نحوها - لأسبابٍ عدة - إلا أنه لم يذخرُ وسعاً في تسهيل خروجها من المخيم، رغم أنها كانت من الفئة المغضوب عليها أثناء الحصار، وقد فاتحني في موضوعها يوماً قاتلاً:

- ”لما بفكر في موضوع رانيا بحس أنى رغم إني ظلمتها ولسه جواتي إحساس إن وراها سر غميق لكنى بحترمها وبحترم خصوصيتها وشايف إن مساعدتها واجب وياريت فيني أقدم لها شي أكثر من هيك“

تذكرتُ .. ما أن وَطِئْتُ قدمها خارج المخيم حتى اِحْتَصَنْتِي، وتركتُ بين يداي مفتاح بيتها هامسةً:

- ”أمنتك أمانة بيتي بيتكم ... بيكفي بتخاطروا بحياتكم مشاني .. والله ما بقدر لاكفائكم ولو شو ما سويت“

وتكاتفْتُ أنا وباسل على مساعدتها؛

بنقلِ أغراضها على دفعاتٍ وفق ما يُتاح لنا، وقد آبى أن أصدق إلى السطح بمفردي، فربط صعودي إلى بيتها بمرافقتي، فالصاعد إلى السطح يصبحُ غنيمَةً باردة للقناصة والبراميل المتفجرة، فمجرد رؤية روحٍ تتحرك تُحفِّزُ أجهزة الانذار والأشعة الحمراء في مناظير القناصة، لتجعلك صيداً مكشوف، لا ينقُصه سوى رصاصة أو قنبلة لتقضي ما كُتِبَ لها.

هل جرّبت أن تعيش يوماً وورحك على كفّ عفرت؟!

هل جرّبت أن تحيا وأنت على يقين بأن اللحظة القادمة مسلوّبة منك، وأن تتجهّز لها وتكون على أهبة الاستعداد لتحمّل عمرك على كفّك، أعتقد أن الكثير عاش هذه الحالة من الفدائيين والمجاهدين، وكذلك أهلنا في فلسطين....

لذلك جعلنا من كل لحظة تمر "حياة"

غزلنا في كل ثانية تمر علينا؛ ضفائر مودة مغزولة بلهج أسنتنا بالحمد والشكر، لتكون الأنفاس التي تتردد في صدورنا

كنا نعيش في بيت مكون من غرفتين، اجتمع الأولاد ثلاثتهم في غرفة وأنا وباسل في غرفة أخرى مع صالة صغيرة ضيقة، حتى إذا جاء عرض رانيا، فتح لنا باباً من سعة، فقد كان بيت رانيا مكوّن من غرفتين صغيرتين ومطبخ أصغر وفسحه عرّشت على جوانبها أغصان الياسمين، سقفت سماءها بعناقيد العنب الشهية .

وكنّت أصعد بالعادة لألملم حاجيات رانيا فينطرنى باسل على السطح كأنه ملاكي الحارس متدثراً بسيجارة بيت فيها همومه وأفكاره، رافضاً أن يدخل معي المنزل، متعللاً بأن لكل بيت حرمة، ولا يجوز هتكها بحجة توضيب البيت حتى وإن رَحَل أصحابه.

وحدث أن ناديته مرة ليعاونني فقد كانت الصحون على رفٍ عالي، وحال طولي بينها، فاستجاب لندائي وأحضر لي الصحون إلا أنه

لَمَحَ عِلْبَةٌ مِنَ الْقَهْوَةِ، فَالْتَفَتَ إِلَيَّ وَقَالَ:

- ”هَلْ لِي مَوْسَامِحَتِكَ رَفِيقَتِكَ بِكُلِّ مَوْجُودَاتِ الْمَطْبَخِ وَمَحَلِّفَتِكَ تَاخِذِي الْمُونَةَ^(١) ٩٩ سَاوِيلِنَا قَهْوَةَ لِنَشْرَبَ وَنُدْعِيهَا“

رَفَضْتُ طَلِبَهُ فِي بَدَايَةِ الْأَمْرِ، فَلَا زَالَتْ أَحْوَالُنَا أَفْضَلَ مِنْ غَيْرِنَا بِكَثِيرٍ، وَلَمْ يَصِلْ بِنَا الْحَالَ لِأَنَّ نَاخِذُ الْمُونَةِ مِنْ جِيرَانِنَا، صَحِيحٌ أَنْقَطَعْنَا عَنْ شَرَبِ الْقَهْوَةِ مِنْ فِتْرَةٍ طَوِيلَةٍ، لَكِنِ الْحَرْبُ أَحَالَتْ تِلْكَ الْعَادَةَ إِلَى لَوْنٍ مِنْ أَلْوَانِ التَّرْفِ، فَلَا دَاعِي لِأَنَّ نَاخِذَ مَا لَيْسَ لَنَا بِحَقِّ دَعْوَى الضِّيَافَةِ ..

ثُمَّ حَدَّثْتُ نَفْسِي:

- ”هِيَ لَوْ هَوْنٌ رَحِ تَضِيفُنَا .. خَلِينَا نَضِيفُ حَالِنَا وَبِخْبِرِهَا .. وَارْسَلْتُ لَهَا رِسَالَةً عَلَى الْجَوَالِ كَتَبْتُ فِيهَا .. أَنَا وَبِاسِلُ رَحِ نَضِيفُ قَهْوَةَ بَيْبَتِكَ .. سَامِحِينَا“

رَغْمَ إِنْ شَبَكَةَ الْإِتِّصَالَاتِ تَهَلُّ عَلَيْنَا كُلِّ حِينٍ وَمِينٍ، كِإِطْلَالَةِ الشَّمْسِ فِي الْقَطْبِ الشَّمَالِيِّ .. تَغِيبُ تَغِيبٌ وَلَا تَظْهَرُ إِلَّا لِلْحَضَاتِ ثُمَّ تَأْفَلُ خَجَلَةً، لَكِنِ كَتَبْتُ لَهَا .. ابْتِغَاءَ تَحْرِيِّ الْحَلَالِ، فَلَيْسَ مِنَ الْمَقْبُولِ أَنْ نَبْطُلُ عَمَلِنَا بِفَنْجَانِ قَهْوَةِ نَسْرِقُهُ غَفْلَةً وَالْأَعْمَالِ بِالنِّيَّاتِ.

وَاشْتَرَطْتُ عَلَى بَاسِلٍ أَنْ يَقْوَمَ هُوَ بِعَمَلِ الْقَهْوَةِ حَتَّى أَنْتَرَعُ لِتَجْمِيعِ

١-المخزون من الطعام.



الأغراض وأجهزها في كراتين بُغية نقلها وتسليمها لها، وكان قرار
الموافقة على فنجان القهوة بالنسبة لباسل كهديّة طال ترقب
روعتها، فتهلل وجهه وانبسط وأخذ يندنُّ:

مكتوب على جيبك

بطل يا ساكن الزنازين

مهما جرى ومهما حصل

كله فدا فلسطين

بعرف أهانوا وعزبوك

باعوا الكرامة وأرهبوك

تيابك بدمك خضبوا

ما في شرف أو دين.

ابتسمتُ وحادثته ..

- ”مفروض هيك غنية رومانسية عم تغازلني فيها!“

- ”إيه طبعاً عم غازلك..“

- ”وين الغزل مع الزنازين والتعذيب والإهانة .. ولك هي كلمات

تقولها لزوجتك حبيبتك!“



- "ولك في أحلى من هيك كلمات .. مهما جرى ومهما حصل
كله فدا فلسطين

بتعرفي حبيبتي .. إنتِ فلسطين في عيوني .. إنتِ العز والكرامة
إنتِ ياللي باقيالي في هي الدني .."

- "وووولي ما فيني على هالحكي .. يلا مشان ما نتأخر ونضبضب
أغراض رانيا، وإنتِ ما رح تتضايفنا بقهوة .. من إيديك
الحلوة؟"

كانت السعادة تهيمُ بي عندما أرى الفرحة تراود باسل فيستجيب
لها، كنتُ في كثير من الأحيان أشعرُ بأني أمه، أشفقُ عليه من
كثرة الأهوال والمصائب التي مرت عليه

كان الخذلان رقيقاً له في مسيرة حياته من أمه وإخوته وأقاربه،
رغم إنه نذَرَ حياته كلها لهم .. لذلك كنت فرحةً بذلك الفرجان
الذي سطر ابتساماً جذلةً على مُحياه، فكأننا اشتركنا مع
درويش⁽¹⁾ في عشقه للقهوة بقوله:

أريدُ رائحةَ القهوة..

أريدُ خمسَ دقائق ..

أريدُ هدنةً لمدةِ خمسِ دقائق

1- محمود درويش أحد الشعراء الفلسطينيين الذي ارتبط شعره بالثورة والوطن.

من أجل القهوة.

لم يعد لي مطلبٌ شخصي

غير إعداد فنجان القهوة.

بهذا الهوس حدّدتُ مهمتي وهدفي.

توثبتُ حواسي كلّها في نداءٍ واحدٍ

واشراّبتُ عطشي نحو غايةٍ واحدة

القهوة.

المطبخُ صغير، تتوسد الخزائنُ الحائط الخلفي من أعلى وأسفل،
تتخذُ المغسلةُ من الحائط الآخر مخدعاً، يكملها خزانةٌ تسترُ
عورةَ مواسير الصرفِ، ولا يتسعُ الممرُّ إلا لشخصٍ واحدٍ، فما
أن دخلَ باسل حتى أخذ يتغزّلُ فيني، في كل حركةٍ يقطعها ما
بين البوتجاز والأرفف، وأنا أردعه تارةً، واستجيبُ خجلى تارة
أخرى، ثم أستقرُّ على البوتجاز ويداه تزنان القهوة في الكنكة
قائلاً:

-”المطبخ روعة بالصيف وبالشتا بدفي ..

وبعدين معك يا مرتى المصونة حد يلبس كل هاللبس ما تركتي
شي بالخزانة!“

- ”وولي مو أنت اللي دائماً بتحكي لازم ننام ونقوم بكامل حشمتنا .. لأنو الموت قريب كتير وبدنا نموت مستورين ...“

- ”إيه والله عندك حق مو معقول اللي عشنا نخبيه يجي الموت ويفضحه“.

- ”إيه خلص ماتحكي بقا وتقولي شو هالأواعي وهالحكي“

وضحكت والخجل يزهرُ خدودي واستكملتُ عملي، لم تمرّ لحظات حتى اعترضني بوضع ذراعه على الحائطِ مستنداً عليه مانعني من الحركةِ ناظراً إلى عيوني في نظرةٍ أذابتني خجلاً.

-الله بحبني وعلمان بحالي حتى جمعني معك بهيك مكان؛

بالبيت ما عدنا ناخذ راحتنا، لم يعدْ مكان للهروب فحشرنى بزاوية المطبخ، وباسني ...

وفارت القهوة.

ومع صوت القهوة، أزعجني تصور برودة المياه تهتك ستر الدفء في يداي في هذا الجو البارد والصقيع، ونحن نقوضُ البرد باكتناز ما نملك من الملابس على أجسادنا، فكيف بنقض ذلك كله لغسل أثار القهوة على البوتوجاز، فأزحْتُ يديه جانباً بجدّةٍ وأغلظتُ عليه القول وتركته متجهماً مين رح ينضف هالقهوة في هالبرد ؟

- ”وبعدين .. معك ..“



نزعتي منا اللحظة الحلوة، كل هالقصة مشان تنضيف البوتاجاز،
إذا بدك بنضف الشقة كلها، وبعدين معك فكينا هالبوز
-الله يستر عليك-“.

همهمتُ بالشكوى فقال ..

-“ شو عم تحكي خبريني ؟ ما فهمت شي من هالمممم ياللي عم
تقوليه .. شو بطلت تحكي ؟”

ضحكت... فضحك

-“ قبل ما نحكي بتنضف البوتاجاز .. منيح“

أنبرى ينظف البوتاجاز بهمة وهو يغني:

شدوا الهمة الهمة قوية

مركب ينده ع البحرية

يا بحرية هिला هिला

هिला هिला

شدوا الهمة الهمة قوية

جرح بينده للبحرية

يا بحرية هिला هिला





هيلا هيلا

طلع الغربي الغربي بيصفر

تحت المينا الجوع بيحفر

يا بحرية هيلا هيلا

هيلا هيلا

طلع البحر البحر يبكي

دمع يبشكي القلب يبكي

يا بحرية هيلا هيلا

هيلا هيلا

ووجدتُ نفسي أصحابه الغناء تلقائياً، فكأن مارسيل خليفة⁽¹⁾
يرافقنا بعزفه وصوت الحماسي، تقدم باسل بصلية القهوة
إلى السطح بعد أن ترك البوتجاز لامع وفي عينيه لمعة انتصار
الفاحين، وحرصتُ أن أراضيه بقطفٍ عرق من الياسمين ممتنةً
له على فعله

وما أن جلسنا مع أول نظرة ... تصالحنَا.

منظر الياسمين يُعانقُ السحاب، يخالطُ كرم العنبِ الأحمر

١- مؤلف موسيقي ومغني لبناني من أهم الفنانين العرب المهتمين بقضية فلسطين.



فيتكاملُ مع لونِ السماء الصافية، كأننا في لوحةٍ تصويريةٍ أبدعها
الخالق، أخذ باسل يتشممُ عرق الياسمين والتفت إلي:
- ”بتذكري ...

ثم غرقنا في نوبةٍ من الضحك“

لا واللهِ جد عمٍ أحكي تتذكّري عندما كنتُ أشتاقُ إليك، وكان
العملُ يرافقنا أيام وأيام، وأنا أراكي كل يومٍ أمامي في المشغلِ
ولا مساحةٍ لنا للتلقي.

-قاطعته مبسمةً .. لكنكِ كنتِ تتحايل على كل ذلك لتلقاني.

-ضيقُ الحربِ علينا كل متسعٍ، فلم يبقِ لنا إلا لحظات نفْتَضُّها
من الزمنِ اقتصاصاً.

-إيه .. بس كنت مجنون وبعديك مجنون ما تغيرت

ابتسمت فاختال زهواً

-إيه بعدني مجنووووووون فيك

فضحكت .. فضحك

كانت الضحكات كزغردة الفرح التي تَعْتَقُ نفوسنا من ربةِ الهمِ
وأنين الحربِ ووجع الحصار، لكنها مهما طالَّت طويلة، مهما كانت
صادحةً فنهايتها مبتورة.

وكانما انتشى باسل بهذه الذكريات ..

-لا بد من الإحتفال الآن؟

- وبماذا نحتفل؟

- نحتفل بإننا مع بعض

قام باسل بتشغيل المسجّل على البطاريات الجافة، التي كان يبذلُ
جهده لتأمينها مثل ما يأمن الخبز

فعندما تأتي الكهرباء بالصدفة، تكون بالنسبة لنا احتفالية كبيرة
ليشغل باسل جهاز DVD ليرى بالست ميس شلش شخصياً.

وبرغم علو صوت ميس لكنه لم يغطي على صوت الرصاص
والدوشكا ولا القذائف.

وإن خفت صوتهم في قلوبنا لكن صوت القذائف ككل مرة إنتزع
مساحة الفرحة التي اقتصناها، فهب باسل قائلاً:

- ”فوتي ضبي الحرامات اللي بدها ياهن لأنزل اطمن على الاولاد
ونزلهن لعند جارنا ابونضال التونسي أأمن..“

نزل باسل مهرولاً وبقيت أنا على السطح أصبحنا شبه معزولين
عن بعضنا البعض والخوف بحضوره ينتهي

لكن مجرد غيابه يعني كل الخوف.

تشبثتُ بالجدار وأنا أهدُّ الثواني مستدعيةً الشهادة كل لحظةٍ،
كمن يذكرُّ نفسه بها قبل أن يلقى حتفه،

هدأتُ أصوات القذائفِ والصواريخ، تلفتُ حولي فإذا باسل يفتحُ
باب السطح وينادي هامساً

- غنوتي .. حبيبتي ، زوجتي المصون

كان يريدُ أن يُلطف تلك التجربة التي مرّت بي،

فصرختُ من وراء الجدار ..

- ”ما تحاكيني ..

ما بدي إياك ..

أتاخرت علي كنت بموت في جلدي من الخوف ..“

صرخ بي لا تتحركي ..

لَمْ أَسْتَجِبْ خَرَجْتُ ..

وما أن وضعتُ قدمي خارج الغرفة حتى سمعنا صوت صاروخ

ينفجر اعقبه صوت تطاير الشظايا تملؤ المكان

خفت واختبئت فيه

احْتَصَنَنِي باسل بقوةٍ وقتها طلبت من الله الموت في حضنه.

فجأه انتبهت لأمر هام،

ابتعدت عنه:

- "ييعتلي حمى قديشني أنانيه .."

- "ليش؟؟"

- "شلون بتحمي فيك وبخبي حالي بدل ما خبيك !"

- "ييعتلك مية حمى مولأنك أنانية .. لأنك هبلة

ونزعتي اللحظة الرومانسية، طبيعي تتحمي فيني ولا بتحبي
جيب ابونضال تتحمي فيه اعرض واضخم ..

يا حبيبتي.. أنا من أحملُ شرفَ الرجولة لذا إذا لم أقمُ بحمايتك
وحماية أولادنا فمن سيكون لهم، على الأقل أنا الآن بوعيي، قد
تأتي لحظة وأصابُ بشظيةٍ أو تحدثُ لي عاهه، وقتها لا يكونُ
بوسعي حماية نفسي قبل حمايتكن !"

خفضتُ عيوني وقد استسلمتُ للاستكانة بين ذراعيه.

في ثقافة الحروب .. الكلُّ واحد والواحدُ كل،

كلُّ يجودُ بما يقدرُ عليه، إذا قدر؟؟!!

جيلنا من الفلسطينيين جيلُ التربية العسكرية، تعلّمنا حمل
السلاح، فكه وتركيبه إلى جانب الاسعافات الأولية بالمدارس، كنا

نحرصُ على التمييز بأي جانبٍ عسكري كان أو ثقافي أو تعليمي،
كان التمييزُ هو طوقُ النجاة من نظرةٍ دونيةٍ يَطلُّها البعضُ دون
رحمة أو رَافَة

كأننا من كتبنا على أنفسنا أن نعيش مشرّدين، كأننا من اخترنا
مصيرنا، أن نعيش الشتات و وطننا يُستباح، والجميع يشاهدُ
ويكتفي بالشجبِ والإدانة والامتعاضِ.

كانت فلسطين بالنسبة لباسل هي الروح بالنسبة للجسد، كان
يحبني لأنني ميسا مرة، ولأنني فلسطينية مائة مرة، يحبُّ لهفتي
على الناس وجرأتي في الحق، صوتي الناقض للظلم، ومع أنه
كثيراً ما كان يردعني أمام الناس، وكثيراً ما صرَّح بخشيته عليّ
من حشريتي^(١)، إلا إنني كنتُ أعلم إنه مفرم بنشميتي ..^(٢)

وكثيراً ما كان يعلِّقُ، يفني لي..

والله نشمية .. فلسطينية

أخت رجال .. بنت رجال ..

نظرات النصر بعيني

فلسطينية

أنا النشمية

١-فضولي.

٢-رجولة.

فلسطينية

ولساني أحلى كوفية.

في هذا اليوم غافلنا الغروب وجاء سريعاً، في الشتاء تكون الشمسُ
خجولةً تختبئُ سريعاً، ولكن مع الحرائق التي انطلقت حولنا مع
وهج القذائف لم نعد نشعرُ بغيابِ الشمس، وعلى قدرِ ما الحربُ
بشعة وقاسية، بقدرِ ما نجدُ في أنفسنا مكاناً للرومانسية والحبِ.

أصرّ باسل على شربِ القهوة بعد كل ما حدث، ودخلتُ للمطبخ
ثانية لاحضر الكنكة وبينما نشربُ القهوة دار الحديثُ عنه وعني،
عن مستقبلٍ غير واضحٍ بمعالمٍ مبهمه،

سألته عن مستقبلِ الأولاد فكان جوابه :

” لا تفكري لأنو تفكيرك مالو قيمة قدام القدر والنصيب

عيشي ساعتك وبس ،واسعي بتربايتك واهتمامك لتعلميهن،
وهنن يتولوا مستقبل حالهن.

كنا نتحدثُ وأصوات الرصاص والقذائف على أشدها، وتتهاف
عليك أصوات القنابل والانفجارات كأنها موسيقى مرعبة، لم يكنْ
بمقدورنا أن نساعدُ أو نستطلعُ، فالنزول إلى الشارع بوقت كهذا
موتٌ محتمٌ،

وحتى جِلستنا على السطح خطرٌ بالغٌ، لكننا كنا وصلنا لمرحلةٍ من
اليأس جعلتنا بأننا بقدرِ ما عشنا مع الموتِ .. ترافقنا

وأصبح بيننا عشرةٌ وخبزٌ ودمٌ،

وطالما الموت لا يستأذنُ فما الذي نَحْتَاطُ له أو نُوْجَلُ حياتنا من
أجله!

وقف بأسل على طرفِ السطحِ ليستكشفُ ماذا يدور في الأسفلِ،
باغتهً واقتربتُ منه بشغفِ الفضولِ والاستشكافِ.

”فقال مازحا .. هلئى من وزنك بينهار الحيط خلينا مستورين
.. بعدين شو بدك تشوفي لبعيد .. شوفي جوزك اقربك.“

تقمصت دور الغضبى، فتركْتُ السطح و أخذُ يحومُ حولي طالباً
الصفح .

إنتهزتُ الفرصة وسألته ..

” من تحب أكثر أنا ولا فلسطين؟“

رغم أنك لم تراها يوماً ولم تذهبْ إلى هناك، ويقال عنك .. ابن
الشامية لأنك تربيت ونشأت في الشام .

” فلسطين هي الحسنة الوحيدة بحياة العرب كلن ..شعبها
شجاع وصامد وإذا كان هناك عز بالعالم العربي .. هو اعتزازي
بفلسطين ..أشعر بكرامتي ورجولتي عندما يقولون .. فلسطيني ..
هيك علمي أولادك .. “

” ضحكتُ .. وين أنا من فلسطين؟؟؟“

ضحك قائلاً اقتربي لأخبرك ..

قبل أن تكمل الضحكة طلع طيران استطلاع ، كانت الهيلوكوبتر
تحلق منخفضةً بالقدر اللي نشوفها فيه .. وما فتئت ترمى بقنابل
ضوئية.

كانت المرة الاولى التي نرى فيها هذا المشهد، شعرنا بأننا في
عرضٍ للألعابِ النارية،
أصبحنا نشاهدُ ونحن مشدوهين لهذه الأضواء الجميلة التي تعيدُ
تشكيل السماء من جديد
إلتفت إليه ..

- ”يا ليت الأولاد معنا ليشاهدوا المنظر!“

- ”الحمد لله ما هن معنا لأنو بعد شوي رح يتغير المنظر وما يعود
مناسب يشوفوه ..

غمزني وقلتي بصوت واطي اذت جمالا.“

- عازك وعواذك ومية رقعة بقمبارك⁽¹⁾ أنا من عمري حلوة بس
انت لازمك نضارة،

- ”عوجد وشك ضاوي، شو حاطة بودرة؟“

- ”هاد تأثير القنابل الضوئية انعكس على وشي“

١- مثل شعبي شامي يفيد الاستكار.

- "خليني اشوفه .. لاتاكد"

وفجأة لمعت السماء من جديد بتلك القنابل الضوئية فتوقفنا عن
الحديث، والتفتنا إلى الأعلى، وأضاءت الدنيا، اقتربت من باسل،
فاحتضنتني، وبرقت عيوننا بنظرة إلى الأعلى

كنا نتلمس الفرخ والسكينة كالمريض الذي أنهكته الآلام والوجاع
وروحه معلقة بتمتل الصحة والعافية

أخترلنا كل مشاعر الاضطراب والخوف والوجع في ضمة تبقينا
إلى جوار بعض، في لحظات أعادت لنا كيف كانت سوريا أرض
يجتمع عليها الغريب والقريب، يجمعهم الحب والمواطنة

وفجأة لمعت السماء أكثر وأصبحت أكبر ألقاً وأجمل، وباتت
الاضواء تقصداً، تحتفل بحبنا، بصمودنا، بإصرارنا على الحياة
رغم كل ما يحيط بنا من الردى.

فضمني باسل إليه أكثر، وشخصت عيوننا مع السماء، واختفت
اصواتنا مع دوي الاحتفال والالعاب النارية، وظلت تقترب منا
أكثر، وكلما اقتربت كلما احتضننا بعضنا أكثر.







البرخ



كنت بين مصدق ومكذب، ولا حيلة لي إلا أن أصدق
وأدعو الله أن تكون كذبة، ونافحت إمارات الحمل
بعدم الرضوخ، فضغضعت المنافحة عزيمتي، وزهق
الصبر بالخبر، وهتك القلق الانتظار، فتبدى الأمل في
الاجهاض كسحابة مزجاة في أرض أفلها قلة الفرص



فوجئتُ بحملها، زعمَ الأطباءُ أن الحملَ سيكون وبالاً عليها،
فرحمها لا يحتملُ حملاً رابعاً، فتلك مجازفةٌ خطيرةٌ قد تؤدي بها
إلى التهلكةِ، ولكن بعض الأطباءِ يجتهدُ، فيسرفُ عليك النصائح
والتوجيهات وكأنه يحملُ صك الحياةِ و الموتِ

فالروحُ كلمة الله وسرها، فلا قدرة لمخلوقٍ على التنبأ بالموتِ أو
بيانه إلا الله - سبحانه -.

اتكأتُ زينب بكوعها على مسند الكنبِ وقد فتحتُ حقيبتها لتُخرجَ
هاقتها المحمول وكأنما كانت كلماتها الاخيرة نهايةُ النقاشِ في
حوارها مع إختها.

-يا زينب: إن كلَّ شَيْءٍ بقدرِ الله وأمره، ولكن الله سبحانه وتعالى
قال ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾^(١) وقد كتب اللهُ لكِ عمراً
جديداً في ولادة أدهم، فلا بد أن تعي ذلك وإن تُدركي إن حُسنَ
التصرفِ يأتي بالمعرفة لا بالعنادِ والصلفِ

وإن المحكَّ هو حياتكِ هذه المرة، وإحمدي الله أن مَنْ عليكِ
بثلاثة من الصبيان والبنات، فقد حقق اللهُ لكِ، غايتكِ وأغدق
عليك بنعمة الذرية.

أومأتُ زينب برأسها مُأمنةً على حديثها، فقد كانت تجربةٌ ولادة
أدهم من التجاربِ الصعبةِ التي عانت منها الكثير، ولولا ستر اللهُ
وفضله لأبْتدر حياته باليتم،

١-سورة (البقرة: ١٩٥)

ولكن حدث ما لم يكن في البال ولا خاطر، فكانت عودة زوجها المفاجئة من السفر، كسراً لكل انماط الاستعداد والترتيب.

- تأخرت الدورة هذه المرة يا هيام!

- لا تحلمي الامر أكثر مما يطيق لإبد إنه خلل بالهرمونات، فكثير ما تحدث.

- نعم يمكن أكون قلقة زيادة عن اللزوم.

ومرت الأيام، والدورة في حل من موعدها فقد تجاوزت ميقاتها الأيام العشر، فجمعت زينب ما تبقى من شجاعته لتعاود الطبيب، وخشيت من ثورة زوجها، أن يُعنفها على ضربها بكلامه عرض الحائط، فتخيرت طبيباً جديداً، فها لها إمارات الفرحة وهو يزف إليها خبر حملها في باقة من الورود والبالونات.

- مبروك .. أنت حامل.

كنت بين مصدق ومكذب، ولا حيلة لي إلا أن أصدق وأدعو الله أن تكون كذبة، وناقحت إمارات الحمل بعدم الرضوخ، فضعضت المنافحة عزيمة، وزهق الصبر بالخبر، وهتك القلق الانتظار، فتبدى الأمل في الاجهاض كسحابة مزجاة في أرض أقحلها قلة الفرص، وتأهبت لذلك وكل الآمال معلقة في عملية صغيرة أتخلص بها من وطأة مستقبل تلبدت سماءه بغيوم سوداء وجو عاصف.

وتلفحتُ بالقلبي، ودلقتُ باب الطيبِ متدثرةً بكلماتٍ أسرها بيني وبين نفسي ” اللهم يسرْ ولا تُعسرْ رب تمم بالخير“ وجاءت النازلةُ التي قوّضت الأملَ في العملية، بأن المخاطرةَ واحدةً.

وبدأتُ الشهورُ تمرُّ، وفي طياتها ابتلاءٌ وراء آخر، وهي مستلقيةٌ على السرير لسانها يلهجُّ بالدعاء، وحركتها قليلةٌ وعيونها شاخصةٌ نحو مستقبلٍ قد لا تراه،

وابن أو ابنة لا ذهب لهم أن يروا الحياةَ من رحمِ المعاناة والفقدِ.

أصبحتُ كالمشلولةِ التي تستعينُ بالدعاءِ والسلوى في استشرافِ أيامها القادمة، أغرسُ الأملَ في صدري وأحرثه علَّ الله أن يبت في أمري.

الحركة بركة في الحياة، ولكن في حالات الولادة الخطرة، الحركةُ مُهلِكة، فالجنين لم يتثبت بعد، والرحمُ في حالةٍ يرثى لها، والجنين مقلوب، كلها عوامل تسببُ في تأكيد أن السكونَ في الحمل سَكينةٌ وفلاحٌ، توالى الأيامُ وتعددت زيارة الأطباء.

جاء الشهرُ الثامن مترنحاً مثقلاً بهواجسِ الخوفِ وخيالاتِ الفقدِ، أطل الشهرُ بنزيفٍ دافئٍ يتسللُ خارجَ جسدها، وطَفَقَ الدمُ يتدفقُ كينبوعٍ تَفَجَّرَ دون انقطاعٍ

وخارت الحلولُ تكلى، وكست الصدمةُ الجميع بثوبِ الجمود، والزوج حائرٌ، والأصدقاء واجمون، عيونها شاخصة وقد اكتسى

ثوبها بالدماء كأنه كفن شهيد، وصلنا إلى المستشفى بسرعة،
هرول زوجي إلى الاستقبال

-انجدوني .. زوجتي في خطر ..

ردت عليه الموظفة في برود ..

-سأرسل في طلب أحد الممرضات لمساعدتك

-إن زوجتي على حافة الخطر تتأرجح

أريد طبيباً... بالله عليك اسرعي.

وأمام برود الموظفة، أمسكت أول شخص بروب الأطباء يمر
أمامي كدت أن أقتلع كتفه وأنا أدفعه للنزول للسيارة ليأمرهم
باحضار زوجتي، ما إن رآها حتى استنكر حالتها وتبدل وجهه،
وتغير معتزلاً

-المستشفى لا تقبل هذه الحالات ١٩٩

-أوااه أى حالات يا من أقسمت برعاية المرضى

أضرم الرعب في صدري وأنا انتقل بها من مستشفى إلى الآخر،
والأطباء يمتنعون عن قبولها

وكان الرحمة أجتت من قلوبهم، يتعاملون مع زوجتي كأنها حالة
تجربة، يفحصونها، ينبروا لسؤالها وهم يرون الدماء تتدفق معلنةً
انصراف الحياة منها رويداً رويداً...

وهم في حالة استطلاع، وأنا اتشظى بين الخوفِ عليها والمسئوليةِ
في أني لَمْ أفيها حقها .

أَعْرَوْقَتِ السيارَةُ بالدماءِ وَأَضَحَتِ الثواني كالساعاتِ، وأنا أتعلقُ
بِحبالِ الأملِ وبقيني بأن الله لن يكلني إلا لخيرٍ

المستشفيات الصغيرة تُحيلُ الأمر إلى الكبيرة، والكبيرةُ تَتَخلى،
وتارةً ببروقراطيتها تتجلى، وهي في السيارة تستغيثُ بأهاتٍ تخلعُ
القلوب

- اتركني ها هنا

لا تُرهقُ نفسك أكثر..

الإذعانُ للابتلاء يقين..

وَأَنْتَ أَهْلٌ لِلْيَقِينِ..

لا تجزعِ عِنْدَ مَوْتِي ..

فقدِ إقتربتِ ساعتي ..

وأهْلُ المَوْتِ يَسْتَقْبِلُنِي ..

الأولادُ أمانةٌ في عُنُقِكَ ..

وأشْهَدُ اللهُ إِنَّكَ كُنْتَ نَعَمَ الزَّوْجِ وَنَعَمَ الأَخِ والصديق ..

-رويدك يا زينب، وفري عليكِ جهدَ الحديثِ، فالطريق أوشك على
الانتهاةِ، وها قد وصلنا إلى المستشفى الكبيرةِ المجهزه بقدره
قادر، ثم بالاستعانة بصديقٍ مسئولٍ

لم يترددَ الطبيبُ أن يُعلنَ حالة الاستنفارِ في طاقمه،

تحرك الجميعُ كخليةِ نحلٍ، حمل الاطباءُ زينب على محفّة العمليات
وكانهم يطبّرون من فرطِ السرعة، والطبيبُ يصيحُ :

-غرفة العمليات بسرعة ..

يلا مفيش وقت

وأغلق بابِ العمليات واشتعلت اللبنة الحمراء، كما هاجت بي
الهاجسُ بين القلق والدعاء .

لا أعي ماذا دار بي، ولكني كمن تسلل الخدرُ إلى أوصالي فتهت عن
الواقع وتاه معها كل شيءٍ،

كل الشخصوس أضحوا اشباحاً، ولم أعد أرى إلا كشافات غرفة
العمليات مُسلّطة على وجهي، وسخونة ولزوجة الدم تتسأل على
أجزاء جسدي، وهمهمات الاطباءِ حولي كأنني في ملكوتِ آخر
هائمةً.

-إسرِعوا ..

نريدُ أكياسَ دمٍ...



حَالَتُهَا خَطِيرَةٌ ..

-دكتورة ... محتاجين ٣ لتر دم فصيلة O سالب ..

بسرعة من فَضْلِكَ ..

يا آلَهي .. رُحْمَاكَ يا رب ..

رُحْمَاكَ يا رب ..

لقد اِنْفَجَرَ الرَّحْمُ ...

الدم أُرْجُوكم بسرعه الدم ...

النزيفُ شديداً، والجسمُ في حاجةٍ للدم ..

.. ستموت ..

أين جهاز الصدمات الكهربائية؟

إنا لله وإنا إليه راجعون ..

إنا لله وإنا إليه راجعون ..

لله الأمرُّ من قبلي ومن بعد ..

لله الأمرُّ من قبلي ومن بعد ..

وفجأة تَغْيِرُ الوَقْتُ ..



أَضَحَّتْ الْمَشَاهِدُ مَشْوَهَةً

إِنْكَشَفَ ضَوْءٌ سَاطِعٌ، خَطَفَ الْبَصَرَ

وَسَمِعَتْ قَوْلَ الطَّبِيبِ

اذْكُرُوا اللَّهَ

لَقَدْ جَاءَ أَجْلُهَا

الْبِقَاءَ لِلَّهِ ..

أَأَكُونُ مَتُّ فِعْلًا!

كَيْفَ ذَلِكَ وَأَنَا لَازِلْتُ أَسْمَعُهُمْ!

كَيْفَ يَقُولُونَ ذَلِكَ وَأَنَا أَرَى أَشْبَاحَهُمْ وَأَنَا مُغْمِضَةً عَيْنِي،

وَأَشْعُرُ بَأَنْفَاسِهِمْ وَهُمْ حَوْلِي ..

أَأَكُونُ انْتَقَلْتُ إِلَى عَالَمٍ آخَرَ!؟

مَنْ أَنَا ؟

وَمَاذَا يَحْدُثُ!

مَا هَذَا الضَّوُّ السَّاطِعُ!؟

كيف يقولون عني متٌ وأنا حاضرة بينهم

أراهم

أسمعهم

أصْرُحُ بعلو صوتي فلا يلتفون إليّ

أحرِّكُ ذراعي فلا يعبئون بي

أنا هنا ..

أنا زينب ..

تأملت نفسي نظرتُ حولي فارتعدتُ وسرى الخوفُ في فأفجعني،
وجدتُ روعي خرجتُ من جسدي

كأن روعي انفصلتُ عن جسدي البشري الزائل، أصبحتُ أنظرُ
إلى نفسي من فوق فأجد جسدي مُلقى على السريرِ والأطباءُ من
حولِي، أسترجعُ شريط الذكريات، كانوا هنا مُنذُ لحظات ..

في حالة اضطرابٍ وهلعٍ، يلتفتون إلى بعضهم البعض ..

-أسرع زود شحنة الكهرباء .. قلبها على وشك التوقف ..

أشاهدُ جسدي ينتفضُ مع الصدمات الكهربائية المتتالية، وصبيرُ
جهاز القلب ثابتٌ على وتيرةٍ واحدة.

-انتهى النبضُ ..

انتهت الحياة ..

مَتُّ أَنَا كَمَا يَرُونِي ..

مجرد جسدٍ خاوي من الحياةِ امامهم ..

لكني هنا ..

أراهم وأسمعهم

أنا هنا في مكانٍ ما ..

أحاولُ لفتِ انتباههم دون جدوى

لا أحدٌ يُنصِتُ إليَّ

وتهاوى صراخي في الصمتِ كأنَّ شَيْءً لَمْ يَكُنْ

وفجأةً بدأتُ اشعرُ برعشةٍ تسري فيّ، وضوءٌ ساطعٌ آخر يتغشاني،
ووجدت روعي مُسَجَّاةً فوق جسدي، واستدركُ بصيصاً من اصواتِ
الاطباءِ المضطربةِ حولي، وقتها شعرتُ بآني في ممرٍ اسطواني
طويلٍ، طويل جداً ... وفي نهايته يسطعُ ضوءٌ جميلٌ مبهرٌ، يأخذُ
الابصارَ

ومن الجهةِ الأخرى من الممرِ، أسمعُ همهماتِ الاطباءِ والمستشفى
وأصواتِ الاجهزةِ

هناك ... هناك شَيْءٌ ما يَسْعَبُنِي لأدخُلُ الممرَ أكثر، والضوءُ



يسري في روحي، يتخللُ جسدي...

وهمهمات الاطباءِ تَحَبُّو...

وتخبُّو،

وفجأة شَعُرْتُ بشعورٍ مغايرٍ،

هناك من يجذبني إلى الناحية اليسرى ...

إلى المستشفى

يَسْحَبُنِي بقوةٍ، تقابله قوةٌ أُخرى من الناحية اليمنى

جسدي يكادُ يتمزقُ بين الشدِّ والشد

وأهاتُ مني تصرخُ أن اتركوني ..

اتركوني

الضيأءُ في اليمين يراوغني، أدركتُ وقتها

أني قد متُ

وأن روحي تنتقلُ إلى عالمٍ آخر

أخذتُ أبكي وأتأملُ حالي، فلارجعة ولا مساحة الآن للبكاءِ على

ما مضى

كل ما فعلته ... فعلته



كل ما جنيته ... جنيته

وكل ما اكتسبته من ذنوبٍ ... اكتسبه

لا مساحة للرجوع، فتذكرتُ قولَ الله تعالى ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ
الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا
كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾^(١)

فأخذتُ أصرخُ أيا .. رب .. ارجعون ..

ارجعون .. ارجعون .. ارجعون ..

أيا رب .. أرجعون ... ارجعون ..

وهمدتُ كل أجزاءِ جسدي

وسكنَ السكونَ روحي

فقد ادركتُ إن ما من مساحةٍ للرجوعِ

ولكن لازال الشدُّ يَمْرُقُنِي أكثر ما بين اليمينِ واليسارِ

فما ادركتُ نفسي إلا وزوجي يهتمُّ في أذني..

”الحمد لله كَتَبَ اللهُ لكِ عمراً جديداً“

١-سورة (المؤمنون: ٩٩-١٠٠).



للتواصل مع الكاتب



www.ussama.net



info@ussama.net



[@ussama14](https://twitter.com/ussama14)





